المقـــدمة

١ — تزاوج الحضارات ، وسائل هذا التزاوج وخاصة الترجمة

الاتصال والتزاوج أساس التطور والرقى ، أمثلة ، طرائق
التطعيم والتلقيح بين الحضارات بعضها والبعض الآخر ،
الترجمة : عند العرب فى العصر العباسى ،
فى أوربا فى العصور الوسطى
وعصر النهضة .

يقول علماء النبات إن النبات إذا طعم ولقح بنبات غيره أنتج ثمرا أحلى من النباتين ؛ فالتفاح إذا طعم بالكمثرى جاء فاكهة جديدة أحلى مذاقا ، وأعطر شذى ، وكان بالتالى فى السوق أكثر طلبا وأعلى ثمنا ، ففيه طعم الفاكهتين ورائحتهما .

ويقول علماء الوراثة والباحثون[١] فى الذكاء إن الأسرة أو القبيلة يتزوج أفرادها بعضهم البعض الآخر يكون مصير أجيالها الضعف والغباء جيلا بعد جيل ، وعلى العكس إذا دخل الأسرة دائما دم جديد من أسرة أو أسر جديدة جاء النسل أكثر قوة وأذكى عقلا ، وبالتالى أصلح للبقاء ، وأقوى على النضال فى الحياة .

ويقول علماء التاريخ والاجتماع والحضارة إن الشعب أو المجتمع

---

(١) انظر : Rex Knight, Intelligence and Intelligence Tests, pp. 67—84. ، ومقالنا : «الذكاء والوراثة» فى مجلة العلوم ، السنة السادسة ، العددان الخامس والسادس ، مايو ويونيو سنة ١٩٣٩ ، ص ٤٤١ — ٤٤٥ .

أو الدولة أو الحضارة التي تعيش وحدها ، وتنطوي على نفسها ، ولا يصيبها تطعيم أو تلقيح من حضارة غيرها يكون مصيرها الضعف والانحلال ، ولا نقول الزوال ، فإنها تبقى موسومة في سجل التاريخ بأنها حضارة ضعيفة . وهكذا نجد أن الحضارات القديمة كانت دائما على اتصال ، فإذا ضعفت الحضارة القديمة قامت الحضارة اللاحقة لها وفيها جماع ما في سابقتها من خير تتخذه كأساس لتبني فوقه أبحاثا ، وكشوفا ، وعلوما ، وآدابا ، وفنونا جديدة هي كلها ثمرات لجهود بشرى جديد .

ولهذا لا نجد الحضارة — من قديم — وقفاً على شعب واحد دون غيره ، بل هي كالوديعة يتناولها أبدا الشعب القوي فيزيد فيها وينميها ، حتى إذا انتابته عوامل الضعف والكلال أسلمها أمانة — أيضا — إلى الشعب الذي ولد جديدا وفيه عناصر القوة الجديدة ، وهكذا دواليك . فلا عجب إذن أن نجد طالب الفلسفة الحديثة — مثلا — نفسه في حاجة لأن يدرس تاريخ الفلسفة والفلاسفة عند أمم الشرق القديم ، ثم عند اليونانيين ، ثم عند المسيحيين والمسلمين في العصور الوسطى ، إلى أن يصل إلى العصر الحديث ، لأنه يجد للفلسفة قصة طويلة واحدة لا يمكن أن يقرأ فصلها الأخير ويفهمه ، إلا إذا بدأ بالفصل الأول فاستوعبه ، ثم اتبعه الفصول الأخرى فتفهمها ؛ وهذا مثل بسيط ينطبق على كل علم أو فن أو أدب ، بل وعلى كل فرع من علم أو فن أو أدب .

وطرائق التطعيم والتلقيح بين الحضارات بعضها والبعض الآخر كثيرة مختلفة ، تختلف باختلاف العصور ، فقد كان الاتصال والتأثير عن طريق الحروب أحيانا ، وعن طريق الهجرة والرحلة أحيانا أخرى . وقد كانت وساطته التجارة آنا ، والسفارة آنا آخر ، والزواج آنا

ثالثا . . . . إلخ ؛ غير أن نقل العلوم من حضارة إلى حضارة ، وترجمتها من لغة إلى لغة كانت هى الوسيلة المشتركة دائما ، والناجحة أبدا .

فهؤلاء هم العرب ، كانت حضارتهم قبيل ظهور الاسلام — إذا استثنينا ما قام فى اليمن من حضارات قديمة ـ حضارة بدائية إذا قورنت بغيرها من الحضارات التى كانت تجاورها ، كالحضارة المصرية ، أو الحضارة الفارسية ؛ وانتشر الإسلام فى سرعة جامحة عجيبة شده لها العالم أجمع ، وورث فى سنوات قليلة أملاك الدولتين المجاورتين ، وأخذ الدين الجديد ينتشر بين الأهلين ، وأصبحت له حكومات فى هذه البلاد الجديدة ، وتزاوج الشعب العربى مع هذه الشعوب جميعا جنسا ولغة وحضارة ، غير أن القرن الأول للدولة الإسلامية الجديدة انقضى والجهود تبذل لتوطيد الدعائم ، وتثبيت الأسس ، وبذلت جهود ضئيلة فى عهد بنى أمية للنقل عن علوم الروم والفرس ، ولم يبدأ العصر الذهبى للحضارة الإسلامية إلا فى عنفوان الدولة العباسية — فى عصرى الرشيد والمأمون — حيث أقبل العلماء — يدفعهم ويشجعهم هذان العاهلان العظيمان — على الترجمة عن اللغات الأجنبية[١] فترجمت كتب كثيرة فى الطب والفلك والرياضة والفلسفة والجغرافية . . . إلخ . . . إلخ ، ومنذ ذلك الحين تفتحت عقول المسلمين ، وأقبلوا يقرأون ويفهمون ، ثم أدبروا يفكرون ويبحثون ، فكان لهم بعد ذلك طب إسلامى ، ورياضة إسلامية وفلسفة إسلامية ، وجغرافية إسلامية . . . إلخ ؛ ولكن هذا

---

(١) انظر : أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ١٩٥ — ١٩٦ ؛ وضحى الإسلام ج ١ ، ص ٢٦٣ — ٢٧٣ ؛ وانظر أيضا : تراث الإسلام فى مواضع كثيرة مختلفة ؛ وجورجى زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامى ، ج ٣ ، ص ١٤٧ — ١٦٢ .

لكله حجارة جديدة وطابقا جديداً في بناء الحضارة العلمية ، انبعث منه وسط دياجير العصور الوسطى المظلمة أشعة قوية نفاذة ملأت بلدان أوروبا وممالكها نوراً على نور ، وكانت مبعث النهضة الأوروبية الحديثة وبعض مقوماتها ؛ وكان السلاح القوى لنقل هذه الحضارة الإسلامية إلى أوروبا وقتذاك هو الترجمة أيضا ، فقد ترجمت معظم مؤلفات المسلمين في هذه العلوم إلى بعض لغات أوروبا وخاصة اللغة اللاتينية — لغة العلم والتعليم في أوروبا في تلك العصور — وأصبحت كتب العرب هي المراجع التي تدرس في جامعات أوروبا ، بل وكان العرب هم الذين يدرسون في بعض تلك الجامعات ، وخاصة جامعات إيطاليا(١)

انتقلت الحضارة الإسلامية إلى أوروبا عن طرق ثلاث :

ا — اتصال الأوروبيين بالمسلمين في الأندلس ومملكة الصقليتين .

ب — التجارة .

ج — الحروب الصليبية

وانقلب الأوروبيون — بعد أن منوا بالفشل في الحروب الصليبية — إلى عقر دارهم ، وقد بهرتهم أنوار الحضارة الإسلامية ، ومعهم مفاتيح تلك الحضارة ، فتفرغوا لها يقتبسون معالمها ، وينقلون آثارها ، ويدرسون تواليفها ، وساعدتهم عوامل جغرافية وتاريخية أخرى على أن يسيروا بالحضارة في دورها الجديد على طريقة جديدة تعتمد أكثر ما تعتمد على التفكير الحر أولا ؛ وعلى الملاحظة والتجربة ثانيا ، وقد مهد لهم هذا كله السبيل إلى كشوف علمية جديدة كانت هي الطلائع الممهدة لظهور حضارة القرنين التاسع عشر والعشرين .

---

(١) انظر : Kantorowicz, Frederick II ، في أماكن كثيرة منه ؛ وخاصة الفصول الخاصة بالجامعات الايطالية .

ب — عرض عام لحالة مصر والشرق الأدنى

قبيل الحملة الفرنسية

مصر تدفع عن الشرق خطر التتار ، تأخر الحالة العلمية فى مصر ، ناحية واحدة
اهتم بها المصريون فى تلك العصور وهى التأريخ لأنفسهم ولمصر ، جهود
التأليف الموسوعى فى القرن التاسع الهجرى (١٥ م) ، الركود
والجمود فى العصر العثمانى ، أسباب هذا الركود كما صوّرها
الأستاذ شفيق غربال بك ، وصف الرحالة الفرنسيين
لحالة مصر العلمية فى القرن ١٨ ، وصف
الجبرتى لها ، انقطاع الصلات بين مصر
والغرب الدول الأروبية تبدأ التفكير
فى غزو الشرق وخاصة مصر .

كان الأوروبيون يفعلون هذا بينما كان الشرق قد اتخذ لنفسه ، او اتخذ له القدر أسلوبا آخر من الحياة يختلف كل الاختلاف عن هذا الأسلوب الذى اصطنعته أوروبا لنفسها أو اصطنعه القدر لها .

بذل الشرق — وكانت مصر حينذاك مركزه وضيعته الغنية وحصنه القوى — جهوداً عنيفة لرد الصليبيين عن مصر ، ولم يكد ينجح فى مهمته حتى فاجأته غارات أشد قوة وتدميراً هى قوة التتار يغيرون عليه فى موجات متلاحقة متدافعة ، فصمد لها ، ودافعها حتى دفعها ودفع شرها ، وكان لمصر وحكامها من سلاطين المماليك كذلك الفضل كل الفضل فى تدويخ هذه الجموع الهمجية حتى أحست بالدوار فولت وجهها وجهة أخرى ترضاها . بعد أن قبست قبسا جديداً من

الإسلام هذبها وشذب من وحشيتها ،فاستقرت فى الهند، وكونت هناك دولة (١) مغولية جنسا ، إسلامية دينا . كان لها شأن عظيم فى تاريخ تلك البلاد .

تلاشت هذه الموجات الصليبية والتترية بعد أن بذلت مصر وبذل سلاطينها الجهد كل الجهد ، والمال كل المال ، فى القضاء على هذين الخطرين ، لهذا لانعجب إذا لاحظنا — بالمقارنة — أن عصر المماليك الثانى — وخاصة فى أواخره . يقل قوة وجاها عن عصر المماليك الأول .

ولاعجب أيضا أن نجد الحركة العلمية فى مصر تخمد وتضعف فى هذه القرون لم يظهر فيها مفكرون جدد ، ولا مدارس تفكيرية جديدة ، وانتهت العناية بالعلوم فى الأزهر والمساجد والمدارس التى ينشئها سلاطين المماليك إلى دراسات دينية أو لغوية أو تاريخية ، وانتهى جهد العلماء فى مصر إلى نظم قصيدة لمدح سلطان إذا انتصر ،أو تأريخ حياته إذا مات ، أو شرح ، أو تفسير ، أو تهميش ، أو تعليق ،أو اختصار لأمهات الكتب القديمة فى الفقه والحديث وغيرهما من العلوم الدينية واللغوية .

غير أن هناك شيئا واحداً لم ينسه المصريون عصراً من العصور ، ذلك هو شعورهم بأنفسهم وببلادهم مصر ، ذلك الشعور كان له أثره الخطير فى تاريخ مصر العلمى ، فقد دفع المصريين دائما إلى تأريخ أنفسهم

1) Arnold (Th.), Preaching of Islam. pp. 218—252.

وملوكهم ، وقضاتهم ، وعلمائهم ، ومدنهم ، ومعابدهم ، ونيلهم ، وأعيادهم ... إلخ .. إلخ ، وكانت لنا من هذا الجهد المتصل سلسلة كتب الخطط وما يكملها من كتب التاريخ ، تبدأ بكتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم ، وتنتهى بالخطط التوفيقية لعلى مبارك ، وتقويم النيل لأمين سامى ، وتاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى .

ولم يكد القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) يوشك على الانتهاء حتى كان الإعياء قد أخذ من مصر كل مأخذ ، ولهذا نراها لا تستطيع أن تقف طويلا أمام قوى العثمانيين المتفوقة ، وينتهى بها الأمر إلى الخضوع والاستقرار حينا .

وكأننا بالمصريين وقد أحسوا الخطر الداهم فى ذلك الحين ، فتدافعوا فى منافسة عجيبة — طوال القرن التاسع الهجرى — يسعون لجمع ما وصل إليهم من علم ، وما كان بين أيديهم من كتب فى موسوعات كبيرة[1] ، فتظهر فى هذا القرن أسماء لامعة ، ونرى المقريزى يكتب الخطط والسلوك وعشرات غيرهما من الكتب ، والقلقشندى يكتب صبح الأعشى ، وابن خلدون يضع تاريخه فى مصر ، والسيوطى يجمع مئات الكتب ، ثم نجد السخاوى أخيراً يؤرخ لهؤلاء جميعا ، ولغيرهم ممن عاشوا فى هذا القرن فى كتابه : « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » ، مترسما خطى أستاذه ابن حجر فى كتابه : « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » .

فقدت مصر استقلالها بعد الفتح العثمانى ، وظلت القوى الثلاث

---

(١) أنظر الكتاب القيم الذى ظهر أخيرا للدكتور محمد مصطفى زيادة . وعنوانه : « المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى . القاهرة . ١٩٤٩

الحاكمة (الباشا والديوان والمماليك) وهى قوام النظام الذى وضعه سليم الأول لحكم مصر ، وللاحتفاظ بها ولاية عثمانية أطول مدة ممكنة . ظلت هذه القوى تتناحر وتتنازع ،وكل واحدة تبذل جهدها لتحقيق غرضين اثنين :

(ا) أن تقوى هى وتضعف القوتين الأخريين .

(ب) وأن تبتز من الشعب ما تستطيع ابتزازه من مال لتغنى .

وأما الشعب ، وأما البلد ، وأما نواحى الإصلاح للرقى بالشعب وبالبلد ، فقد أهملت جميعا ، حتى سطر التاريخ لهذا العهد صفحة سوداء ، وغدت مصر توصف — فى هذا العهد العثمانى — بالضعف فى كل شىء : بالضعف فى النواحى الحربية والاقتصادية ، وبالضعف فى النواحى الصحية والعلمية ؛ وخيم على البلاد نوع من الجمود والركود ظل ثلاثة قرون ..

بحث الأستاذ شفيق غربال بك أسباب هذا الركود بحثا موفقا فى المقدمة التى قدم بها كتاب : « الشرق الإسلامى فى العصر الحديث » ، لصديقنا الدكتور حسين مؤنس ، فنفى قول القائلين بأن هذا الركود يرجع إلى كون « الحكام العثمانيين من شعب يميل إلى المحافظة بسليقته ». فالعثمانيون لم يكونوا من شعب واحد ، ولم تكن العثمانية إلا دلالة على الانتماء لطائفة الحاكمين،هذا إلى أن نظم العثمانيين الأولى،وما اختطه سلاطينهم الأول لشئون الحرب والسياسة كان على جانب عظيم من المرونة والمقدرة ...[1] »

ثم وضع الأستاذ بعد ذلك أصبعه على موطن الداء ، وسبب هذا

---

(١) ص « هـ » من المقدمة .

الركود ، فقال : « قد يرجع الركود إلى أن القوة العثمانية حالت بلا شك دون اتصال أمم الدولة بالحضارات الأجنبية عموما . وبالحضارة الأوروبية خصوصا » .

ولكنه شأن الباحث المنصف المدقق يعود فيلتمس للعثمانيين العذر فى النقطتين التاليتين فيقول :

١ — « ولكن الباحث المنصف لا يستطيع أن يسلم بأن الأوروبيين فى القرن السادس عشر وما تلاه من الأزمنة ، كانوا على استعداد لأن يقدموا للشرقيين المسيحيين والمسلمين من رعايا السلطان ثمرات نهوضهم العلمى هدية خالصة . كما أن الباحث لا يستطيع أن يجهل أن تقدم الحضارة الأوروبية كان فى أغلب الأحايين اسما مرادفا لما كانت تقوم به الأسرات المالكة فى أروبا من الحروب فى سبيل المجد ، ويشد أزر الملوك — ولكن فى سبيل المجد الأعلى — رجال الدين ، وفى سبيل الاستقلال — رجال المال . أما والأمر كذلك ؛ فلا سبيل إلى القول بأن الشرق العثمانى كان يستطيع الإفادة من النهضة الأوروبية دون أن ينزل عن رجولته وحريته ... » .

٢ — « والصحيح فى مسألة الركود هو أن الدولة العثمانية تولت أمر أمم كانت على نوع من الأعياء ، لم يكن الحكم العثمانى قادرا على أن يزيله عنها ؛ فالعثمانيون كانوا قوما يأخذون ولا يعطون ، تشهد بذلك خططهم وفنهم وآدابهم ؛ فلم يكن منهم إلا أن نظموا ما وقع تحت سلطانهم فى ملك عريض وعملوا على ألا يتطرق اليه تغيير أو تعديل ؛ شأنهم فى هذا شأن الدول الكبرى المتعددة الأجناس والأديان تتهددها

دون أخرى معادية» (١) .

ومهما تكن الأسباب فإنا لا نستطيع أن ننسى أن هذا الركود الطويل دفع مصر وسكانها إلى الانكماش داخل بلادهم كما تنكمش القوقعة داخل صدفتها ، وطال انكماش مصر وسكانها فأصيبت وأصيبوا بالضعف ، شأن المريض يطول به الرقاد وتطول به الوحدة ؛ ولهذا لا نعجب إذا قرأنا وصف الرحالة الاوروبيين الذين وفدوا على مصر والشام وسائر بلدان الدولة العثمانية فى أواخر القرن الثامن عشر ، أمثال سافارى وفولنى ، وغيرهما . قال فولنى يصف الحالة الصناعية والعلمية فى مصر وقتذاك : « الجهل عام فى هذه البلاد مثل سائر تركيا ، وهو يتناول كل الطبقات ، ويتجلى فى كل العوامل الأدبية والطبيعية ، وفى الفنون الجميلة ، حتى الصناعات اليدوية ، فإنها فى أبسط أحوالها ، ويندر أن تجد فى القاهرة من يصلح الساعة ، وإذا وجد فهو أفرنجى ، أما الصياغة فأصحابها فيها أكثر مما فى أزمير وحلب ، لكنهم جهلاء ، وإنما يتقنون المنسوجات الحريرية ، وإن كانت أقل إتقانا وأغلى ثمنا من صنع أوروبا ، أما العلم فوجود الأزهر فيها جعلها مرجع الطلاب فى الشرق الإسلامى » .

وحتى هذا العلم ، وحتى هذا الأزهر لم يكونا فى القرن الثانى عشر الهجرى (القرن الثامن عشر الميلادى) فى حاله طيبة مبشرة ، بل شملتهما موجة من الركود والجمود ؛ وقد وصف مؤرخ مصرى معاصر — هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتى — مدى ما وصلت إليه الحالة العلمية فى مصر من تأخر وجمود فى ذلك القرن ، فذكر أن أحمد باشا الوالى التركى على

---

(١) ص « و » من المقدمة .

مصر (١١٦٢ — ١١٦٣ هـ = ١٧٤٩ — ١٧٥٠ م) كان : « من أرباب الفضائل ؛ وله رغبة فى العلوم الرياضية ؛ ولما وصل إلى مصر، واستقر بالقلعة ؛ وقابله صدور العلماء فى ذلك الوقت ؛ وهم : الشيخ عبد الله الشبراوى — شيخ الجامع الأزهر — والشيخ سالم النفراوى، والشيخ سليمان المنصورى ؛ فتكلم معهم ، وناقشهم ، وباحثهم ، ثم تكلم معهم فى الرياضيات فأحجموا ، وقالوا : « لا نعرف هذه العلوم » ، فتعجب وسكت .

ثم ذكر مؤرخنا أن الشيخ الشبراوى طلع على عادته إلى القلعة فى يوم جمعة ، « واستأذن ، ودخل عند الباشا يحادثه ، فقال له الباشا : « المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وكنت فى غاية الشوق إلى المجىء إليها ، فلما جئتها وجدتها كما قيل : « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » ، فقال له الشيخ : « هى يا مولانا — كما سمعتم — معدن العلوم والمعارف » ، فقال : « وأين هى ؟ وأنتم أعظم علمائها ، وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئا ، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ، ونبذتم المقاصد » . فقال له : « نحن لسنا أعظم علمائها ، وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام ، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشىء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث ، كعلم الحساب والغبار (؟) » فقال له : « وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية ، بل هو من شروط صحة العبادة ، كالعلم بدخول الوقت ، واستقبال القبلة ، وأوقات الصوم والأهلة ،

وغير ذلك » ، فقال : « نعم ، معرفة ذلك من فروض الكفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية ، كرقة الطبيعة ، وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل ، والأمور العطاردية ؛ وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم فقراء وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق ، فيندر فيهم القابلية لذلك » ؛ فقال : « وأين البعض ؟ » ، فقال : « موجودون فى بيوتهم يسعى إليهم » ، ثم أخبره عن الشيخ الوالد (يقصد والده الشيخ حسن الجبرتى العالم الرياضى الفلكى الكبير فى ذلك الحين) . وعرّفه عنه ، وأطنب فى ذكره .... » .

ثم ذكر الجبرتى بعد ذلك أن الباشا أرسل إلى الشيخ حسن الجبرتى فاستدعاه لمقابلته ، وأنه « سر برؤياه واغتبط به كثيراً ، وكان يتردد إليه يومين فى الجمعة ... وأدرك منه مأموله ... ولازم المطالعة عليه مدة ولايته ، وكان يقول : « لو لم أغتم من مصر إلا اجتماعى بهذا الأستاذ لكفانى ... » .

وأخيرا يختم الجبرتى قصة والده وعلماء مصر مع الباشا بجملة لطيفة فيها نقد ساخر لاذع ، فيقول : « وكان المرحوم الشيخ عبدالله الشبراوى كلما تلاقى مع المرحوم الوالد يقول له : « سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا فانه لولا وجودك كنا جميعاً عنده حميرا ... » (١)

لم تنقطع الصلات بين الشرق والغرب — حربا وسلما — منذ ظهر الاسلام . وكانت الحروب الصليبية أبرز صور هذه الصلات ،

(١) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ١٩٣ — ١٩٤ .

الفصل الأول

اتصال العلماء المصريين بعلماء الحملة الفرنسية
وأثر هذا الاتصال

التقابل بين جيش المماليك والفرنسيين ، أعداء الفرنسيين فى مصر ، فشل الحملة
حربيا ، جهود علماء الحملة ، موقف الشعب منهم ، موقف علماء مصر منهم ،
الشيخ عبدالرحمن الجبرتى يصف المجمع العلمى، اختياره عضوا فى ديوان
« مينو » ، الشيخ إسماعيل الخشاب . علاقته ببعض مستشرقى
الحملة ، اختياره كاتبا « لسلسلة التاريخ » فى ديوان
« مينو » ، أسطورة إصدار صحيفة عربية فى عهد الحملة
ودحضها ، الشيخ حسن العطار ، عنايته بعلوم غير
تلك التى كانت تدرس فى الأزهر ، اتصاله ببعض
الفرنسيين ، إفادته منهم ولهم ، أثر هذا
الاتصال فى المشايخ الثلاثة ،
مطبعة الحملة .

* * *

كان الأمر فى مصر قد انتهى بقوتين من ثلاث — وهما قوة الباشا،
وقوة الديوان — إلى الضعف العام ، والانحلال الشامل، كما انتهى بالقوة
الثالثة — وهى قوة المماليك — إلى نوع من الانتعاش والصحوة ؛
لهذا نجد أن هذه القوة هى التى تتولى أمر الدفاع عن مصر أمام خطر

هذا الغزو الجديد . ولكن المماليك اصطدموا هذه المرة بغرب غير ذلك الذى عرفوه فى الحروب الصليبية ؛ وسرعان ما رأوا أن لا أساس لما زعموا « من أنه إذا جاءت جميع الافرنج لا يقفون فى مقابلتهم ، وأنهم يدوسونهم بخيولهم . (١) » فكان هذا الجيش الجديد الآتى من الغرب الجديد يتبع نظما جديدة ، ويستعمل أسلحة جديدة ، ويقوده شاب يمتلىء شجاعة وإقداما وأملا ؛ فلم يكن من الممكن ، أو من المحتمل ، أن تقف أمامه فلول المماليك — رغم شجاعتهم الشخصية — بنظامهم الفروسى القديم ، وخططهم العتيقة — خطط الكر والفر — وسلاحهم البالى من سيوف ورماح ونبال . . . إلخ .

هزمت جيوش المماليك ، وتفرقت جنودهم شيعا تلوذ بأذيال الفرار شرقا نحو الشام وجنوبا نحو أقاصى الصعيد وبلاد النوبة والسودان ، ولهذا نستطيع أن نقرر أن الحملة نجحت من الناحية الحربية ؛ ولكنه كان نجاحا وقتيا لم يلبث أن انكشف عن صعوبات جديدة ، يقوم بها عصبة من الأعداء : إذ لم يكن من اليسير أن تتنازل فلول المماليك عن غنيمتهم بهذه السرعة ، ولم يكن من السهل أن يترك السلطان مصر — درة تاجه — للفرنسيين دون أن يناضل فى سبيلها — ولو بجهد المقل — ، ولم يكن من الجائز عقلا فى شريعة انجلترا أن تلقى لفرنسا الحبل على الغارب تستولى على هذا الشريان الذى يصل بين قلبها وبين أطراف الامبراطورية فى الشرق ؛ ولم يكن من المقبول أخيرا لدى

---

(١) الجبرتى ؛ ج ٣ ؛ ص ٢ ؛ وانظر أيضا : شفيق غربال بك ؛ الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ، ص ٥ .

سكان مصر ان يضع هؤلاء الفرنج أيديهم على بلادهم ، وهم هؤلاء الكفرة الذين يشربون الخمر ، ويراقصون النساء ، ويرتكبون المنكر عيانا ، وهم الذين يقيدون من حرياتهم يوما بعد يوم فيمنعونهم الدفن فى منازلهم ، ويأمرونهم بكنس الشوارع ورشها وإنارتها ليلا ، ويهدمون أبواب حاراتهم ، ويزيلون أسقف أسواقهم ، ويسجلون مواليدهم وموتاهم ، ويفرضون عليهم الضرائب .. إلخ (١) .

وثارت هذه القوى جميعا ضد الفرنسيين ، ولكل بغيتها وأمنيتها ، وظلت الحملة الفرنسية سنوات ثلاث تناضل نضالا عنيفا حتى عجزت فخضعت ثم خرجت .

غير أن فريقا آخر من رجال الحملة نجح نجاحا مشكوراً فى مهمته التى ألقيت على عاتقه ، ذلك هو فريق العلماء المرافقين للحملة ، فقد كان الجنود يحاربون ويناضلون فى الصحراء ، وفى المدن ، وفى القرى ، وهؤلاء العلماء عاكفون على أبحاثهم وآلاتهم وكتبهم ، يدرسون تربة مصر ، ونباتاتها ، وحيوانها ، وطيرها ، ونيلها ، ومعادنها ، وطرقها وأسواقها ، وصناعاتها ومجتمعاتها ، وآثارها الخ . . ، ثم يسجلون فى دفاترهم نتائج أبحاثهم هذه كلها ، لتكون الرصيد المختزن للمؤلف العظيم الذى يضعونه عن مصر بعد خروج الحملة ، وهو كتاب وصف مصر "Description de l'Egypte"

وكان الناس فى مصر يشاهدون هؤلاء الفرنسيين يتنقلون فى القرى

---

(١) أنظر الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٨١ — ٨٢ ، ١٧٠ — ١٧١ ؛ وغربال المرجع السابق ، ص ١٠ — ١٢ .

والمدن يقلبون أنظارهم فى كل شىء ويخضعون كلما يرون ويشاهدون لبحثهم وآلاتهم ، ويسألون ويقيدون ، فلفت أنظارهم هذا الفضول ، ولكنهم لم يلبثوا أن انصرفوا عن هؤلاء الفضوليين وجذبتهم شئون حياتهم الخاصة .

هذا كان موقف عامة مصر من علماء الحملة ، اما موقف علماء مصر فكان مغايرا لهذا ، فقد اتصلت الأسباب بينهم وبين رجال الحملة بعد أن هدأت المعارك الأولى ، وأسفرت عن فرار المماليك الذين كانوا سوط عذاب مشهرا على المصريين منذ أمد طويل ، فهم من جانبهم رأوا أن حماتهم قد تخلوا عنهم ، وفروا هاربين ، ونابليون من جانبه كان يرى كما قال فى مذكراته أنه لكى يسوس « هؤلاء الناس — أى المصريين — لابد من وسطاء يسعون بيننا وبينهم ، وكان لابد أن نقيم عليهم رؤساء ، إلا أسموا رؤساءهم بأنفسهم ، وقد فضلت العلماء ، وفقهاء الشريعة لأنهم — أولا — كانوا كذلك — أى رؤساء بطبيعتهم — وثانيا — لأنهم كانوا مفسرى القرآن ، ومعروف أن أكثر العقبات تنشأ عن أفكار دينية ، وثالثا ، لأن للعلماء خلقا لينا ، ولأنهم — دون نزاع — أكثر أهل البلاد فضيلة ، لا يعرفون كيف يركبون حصانا ، ولا قبل لهم بأى عمل حربى ، وقد أفدت منهم كثيرا ، واتخذت منهم سبيلا للتفاهم مع الشعب ، وألفت منهم الديوان » (١)

وتكون الديوان من أظهر مشايخ المصريين يرأسهم الشيخ عبد الله

---

(١) Napolèon, Campagnes d' Egypte ,t II, pp. 151 sq.
والترجمة من ألماظ مؤنس، المرجع السابق ص ٩٩ — ١٠٠ ؛ أنظر أيضا :
Corresponpances de Napoléon, t. XXX, pp. 83 – 84.

الشرقاوى ، وكان للديوان شأنه الخاص — من الناحية السياسية — فى حكم مصر تحت نفوذ الفرنسيين .

وكون علماء الحملة مجمعهم ، وأقاموا عددهم وآلاتهم ، وأعدوا مكتبتهم ، وتوفروا على أبحاثهم ، وجذب هذا كله بعض المستنيرين من علماء مصر ، كمؤرخ مصر وقتذاك الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، بل إنهم « كانوا إذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك ، وإظهار السرور بمجيئه إليهم ، وخصوصا إذا رأوا فيه قابلية ، أو معرفة ، أو تطلعا للنظر فى المعارف بذلوا له مودتهم ، ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير ، وكرات البلاد ، والأقاليم والحيوانات ، والطيور والنباتات ، وتواريخ القدماء ، وسير الأمم ، وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ، ومعجزاتهم ، وحوادث أممهم مما يحير الأفكار » (١) .

وطاف الجبرتى بحجرات المجمع وأروقته ، ووقف عند كل مشهد جديد ، ولدى كل كتاب طريف مشدوها مفتوح الفم من الدهشة والعجب ، ولم يسعه وهو المؤرخ الثقة ، إلا أن يثبت وصف ما رأى فى تاريخه معلنا دهشته وإعجابه وعجزه — وهو كبير من علماء مصر وقتذاك — عن فهم هذه الآلات والعدد ، فهو قد نشأ بالأزهر وتلقى فيه العلم . والنمط الذى كان يتبعه طلاب العلم فى مصر وقتذاك ساذج بسيط وإن كان متعبا فى نفس الوقت . فالطالب يجلس فى المسجد . أو

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٥ .

فى داره . وينحنى على كتاب مخطوط كلما أراد أن يقرأ . فاذا دخل الجبرتى بعد ذلك مكتبة المعهد . وشاهد نظام المطالعة الجديد الدقيق أعجب به ووصفه بقوله : « وفيه جملة كبيرة من كتبهم . وعليها خزان ومباشرون يحفظونها . ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة . فيراجعون فيها موادهم . فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون فى فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسى منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة . فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون ، حتى أسافلهم من العساكر »[1]

ثم طاف الجبرتى بالقسم الخاص بعلماء الفلك من المجمع ، وشاهد ما فيه من آلات عجيبة وصفها بقوله : وعند «توت» الفلكى وتلامذته فى مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة . وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب ، الغالية الثمن ، المصنوعة من الصفر المموه ، وهى تركب ببراريم مصنوعة محكمة ، كل آلة منها عدة قطع تركب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة بحيث إذا ركبت صارت آلة كبيرة ، فأخذت قدراً من الفراغ ، وبها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها إلى المرئى ، وإذا انحل تركيبها وضعت فى ظرف صغير ، وكذلك نظارات للنظر فى الكواكب وأرصادها ، ومعرفة مقاديرها وأجرامها وارتفاعاتها ، واتصالاتها ومناظراتها ، وأنواع . الساعات التى تسير بثوانى الدقائق الغريبة الشكل الغالية الثمن » .. [2] .

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٥ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٦ .

وترك هذا القسم إلى قسم التصوير فشاهد هناك المصورين يصورون الأشخاص والأشياء جميعا ، ووصفه بقوله : « وأفردوا لجماعة منهم بيت ابراهيم كتخدا السنارى ، وهم المصورون لكل شىء ، ومنهم « أريجو » المصور ، وهو يصور صور الآدميين تصويرا يظن من يراه أنه بارز فى الفراغ مجسم يكاد ينطق . حتى إنه صوّر صورة المشايخ . كل واحد على حدته فى دائرة ، وكذلك غيرهم من الأعيان . وعلقوا ذلك فى بعض مجالس صارى عسكر . وآخر فى مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات ، وآخر يصور الأسماك والحيتان بأنواعها وأسمائها . »[1] .

ثم عرج بعد ذلك على قسم الكيمياء والطب فوصفه بقوله :

« وسكن الحكيم «رويا» ببيت ذى الفقار كتخدا .. ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه فى ناحية . وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان ، واستخراج الأملاح . وقدورا عظيمة وبرامات ، وجعل له مكانان أسفل وأعلى ، وبهما رفوف عليها القدور المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة . وبها كذلك عدة من الأطباء والجراحية وأفردوا مكانا فى بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوى . وبنوا فيه تنانير مهندمة . وآلات تقاطير عجيبة الوضع ، وآلات تصاعيد الأرواح وتقاطير المياه . وخلاصات المفردات . وأملاح الأرمدة المستخرجة من الأعشاب والنباتات . واستخراج المياه الجلاءة والحلالة . وحول المكان الداخل قوارير وأوان من

---

(١) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٦ .

الزجاج البلورى المختلف الأشكال والهيئات على الرفوف والسدلات ، وبداخلها أنواع المستخرجات » .

وقد أجريت أمام الجبرتى فى هذا القسم بعض التجارب الكيمياتية البسيطة التى يقوم بإجرائها تلميذ المدارس الثانوية عندنا اليوم ولكنها أدهشت عالمنا الكبير وحيرت فكره ، فإنه يقدم لهذه التجارب قبل وصفها بقوله : « ومن أغرب ما رأيته فى هذا المكان . . . » ثم يصف ما رأى فيما يلى : « أخذ بعض المتقيدين زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئا فى كأس ، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى ، فعلا الماءان ، وصعد منهما دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس ، وصار حجرا أصفر ؛ فقلبه على البرجات حجرا يابسا أخذناه بأيدينا ، ونظرناه . ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجرا أزرق ، وبأخرى فجمد حجراً أحمر ياقوتيا ؛ وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندال ، وضربه بالمطرقة بلطف ، فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة انزعجنا منه ، فضحكوا منا ؛ وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة فى مقدار الشبر ضيقة الفم ، فغمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص ، وأدخل معها أخرى على غير هيئتها ، وأنزلهما فى الماء ، وأصعدهما بحركة أنحبس بها الهواء فى أحدهما ، وأتى آخر بفتيلة مشتعلة ؛ وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء ؛ وقرب الآخر الشعلة إليها فى الحال فخرج ما فيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضا ؛ وغير ذلك أمور كثيرة ، وبراهين حكمية تتولد من اجتماع

العناصر وملاقاة الطبائع ؛ ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف ويظهر له صوت وطقطقة ، وإذا أمسك علاقتها شخص ولو خيطا لطيفا متصلا بها ؛ ولمس آخر الزجاجة الدائرة ؛ أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه ؛ وطقطقت عظام أكتافه وسواعده فى الحال برجة سريعة ، ومن لمس هذا اللامس ، أو شيئا من ثيابه ، أو شيئا متصلا به حصل له ذلك ، ولو كانوا ألفا أو أكثر . . . » (١) .

وقد تعمدت أن أنقل هذه النصوص الطويلة عن وصف الجبرتى لأقسام المجمع لأبين الفارق العظيم الذى كان يفصل حينذاك بين عقلية الغرب وعلوم الغرب — يمثلها علماء الحملة — ، وبين عقلية مصر والعلوم فى مصر — يمثلها كبير من علمائها — ويبرز هذا الفارق أعتراف الجبرتى فى تعليقه على هذا الوصف كله ؛ فإنه يقول : « ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ؛ ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا » .

وبمضى الوقت قويت الصلة بين الجبرتى ورجال الحملة الفرنسية فى مصر ؛ وكان الديوان قد عطل إبان المفاوضات بين الفرنسيين والأتراك لعقد معاهدة العريش ؛ فقد كان الفرنسيون معتزمين الرحيل إذا نفذت المعاهدة ؛ ولكن المعاهدة نقضت ؛ ومع هذا ظل الديوان معطلا ، ولم يفكر كليبر فى إعادته ، فلما قتل وانتقلت القيادة إلى « مينو » أعاد الديوان فى صورة غير صورته أيام نابليون ؛ وليس فيه

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٧ .

كما يقول الجبرتى : « خصوصى وعمومى . . . . . بل هو ديوان واحد » (١) . وكونه من « تسعة أنفار متعممين لا غير ؛ وليس فيهم قبطى ؛ ولا وجاقلى ؛ ولا شامى . . . . . »٢ . واختير مؤرخنا الشيخ عبد الرحمن الجبرتى عضوا فى هذا الديوان وأشار إلى نفسه عند ذكر أسماء الأعضاء بقوله : « وكاتبه » (٢) بعد ذكر اسم الشيخ الصاوى مما جعل البعض ينكر اختياره عضوا فى الديوان ؛ ويظن أنه يقصد بلفظ « كاتبه » كاتب الشيخ الصاوى ؛ غير أنه مما يؤيد اختياره عضوا فى الديوان أن جريدة « السكوريبه دليجيبت Courier de l'Egypte » التى كانت تصدر فى مصر وقت وجود الحملة بها نشرت فى العدد ٩١ الصادر فى ٥ افريمير من السنة التاسعة (ديسمبر سنة ١٨٠٠) رسالة ودية أرسلها أعضاء الديوان وقتذاك إلى نابليون القنصل الأول فى فرنسا ؛ وفى أسفل الرسالة توقيعات أعضاء الديوان جميعا ومن بينها توقيع الجبرتى (٣) (انظر أيضا الشكل رقم ١ بالصفحة المقابلة)

ولم يكن الجبرتى العالم المصرى الوحيد الذى اتصل بالفرنسيين وأعجب بعلمهم، بل اتصل بهم أيضا شاعر مصر وقتذاك السيد إسماعيل الخشاب ؛ فالجبرتى يروى له شعرا قاله فى رجلين منهم ، أحدهما اسمه :

---

(١) و (٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٤٥ ، وأنظر أيضا : الرافعى. تاريخ الحركة القومية ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ ؛ وقد ذكر الجبرتى ،ج ٣ ص ١٦٠ أن الفرنسيين عندما علموا بوصول الانجليز والأتراك سنة ١٨٠١ اعتقلوا خمسة من أعضاء الديوان فى القلعة « وأمروا الأربعة الباقين من أعضاء الديوان وهم البكرى والأمير والسرسى ، وكاتبه ، أن يكون نظرهم على البلد .... الخ » .

(٣) أنظر الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ، ج ١ ، ص ٤٥٦ — ٤٥٧ .

(شكل ١)

¹ Le dyouân était composé cette année des neuf membres suivans :

Le *seyd Khalyl el-Bekry* السيد خليل البكرى, chef des chéryfs, ou descendans de Mahomet,

Le *cheykh A'bd-allah el-Cherqâouy* الشيخ عبد الله الشرقاوى,

Le *cheykh Soleymân el-Fayoumy* الشيخ سليمان الفيومى,

Le *cheykh Mohammed el-Emyr* الشيخ محمد الامير.

Le *cheykh Mohammed el-Mohdy* الشيخ محمد المهدى,

Le *seyd A'ly el-Rachydy* السيد على الرشيدى,

A'bd er-Rahman el-Gabarty عبد الرحمن الجبرتى,

Le *cheykh Moustafâ el-Sâouy* الشيخ مصطفى الصاوى,

Le *cheykh Mousa el-Sersy* الشيخ موسى السرسى.

فى سنة ١٢١٥ (١٨٠٠) وفى عهد الجنرال مينو قام م . لوبير M. Le Pér المهندس وأحد أعضاء المجمع باصلاح مقياس النيل بالروضة ، وقد أرسل الديوان بهذه المناسبة خطابين إلى «مينو» و«لوبير» لشكرهما على العناية بالمقياس ، وقد أثبتت صور الخطابين فى كتاب «وصف مصر» ج ١٥ ص ١٤٠ وما بعدها ، ونص فى هامش هذه الصفحة على أسماء أعضاء الديوان فى تلك السنة ومن بينهم عبد الرحمن الجبرتى وهذه صورة للهامش المذكور .

« ريج » [١] ؛ والثانى واحد من رؤساء كتابهم من العارفين ببعض العلوم العربية ؛ يقول الجبرتى : « ولما وردت الفرنساوية لمصر اتفق أن علق (أى الخشاب) شابا من رؤساء كتابهم ؛ كان جميل الصورة لطيف الطبع عالما ببعض العلوم العربية ؛ مائلا إلى اكتساب النكات الأدبية ؛ فصيح اللسان بالعربى ؛ يحفظ كثيرا من الشعر فلتلك المجانسة مال كل منهما للآخر ، ووقع بينهما توادد وتصاف حتى كان لا يقدر أحدهما على مفارقة الآخر ، فكان — الخشاب — تارة يذهب لداره وتارة يزوره هو . . . » [٢]

كان أبو الخشاب نجارا ، ثم احترف تجارة الاخشاب ، غير أن ابنه لم يشأ أن يمتهن مهنة أبيه ؛ وتثقف بثقافة العصر الدينية اللغوية ؛ وتلقى العلم على مشايخ العصر ؛ واتصل منهم بالشيخ العروسى شيخ الجامع الأزهر (١١٩٣ — ١٢٠٨ = ١٧٧٩ — ١٧٩٣) وبالعلامة السيد محمد المرتضى الزبيدى صاحب تاج العروس ؛ وبالشيخ محمد الأمير [٣] مفتى المالكية . . . إلخ . . . إلخ ؛ ثم أقبل على قراءة الكتب الأدبية ، وكتب الصرف والتاريخ ؛ « وأولع بذلك . . . حتى صار نادرة عصره فى المحاضرات والمحاورات ؛ واستحضار

---

(١) لعله العلامة « ريج Raige » أحد أعضاء لجنة الترجمة بالمجمع الذى أنشأه بونابرت فى مصر .

(٢) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ ؛ وقد وردت القصيدة التى قالها الخشاب فى هذا الفرنسى فى ديوانه الذى جمعه صديقه الشيخ العطار ، ص ٣٥٠ ، ولكن تحت هذا العنوان : « وقال يصف غلاما فى حلة سوداء مرصعة » .

(٣) وله مدائح قالها فى هؤلاء الأعلام ذكرت فى ديوانه : ص ٣٥٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ .

المناسبات والماجريات ؛ وقال الشعر الرائق ؛ والنثر الفائق . . . »[١]

ويبدو أن هذه الصداقة بينه وبين بعض المستشرقين من علماء الحملة مهدت له السبيل للاتصال الرسمى بقادة الفرنسيين ، فلما أعيد تأسيس الديوان فى عهد « مينو » أختير الشيخ إسماعيل ليكون أمينا لمحفوظات الديوان ؛ أو على حد تعبير الجبرتى « كاتب سلسلة التاريخ » ؛ فكان هو « المتقيد برقم كل ما يصدر فى المجلس من أمر أو نهى ، أو خطاب أو جواب ، أو خطأ أو صواب » وذلك لأن « القوم كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليومية فى جميع دواوينهم ؛ وأماكن أحكامهم ثم يجمعون المتفرق فى ملخص يرفع فى سجلهم بعد أن يطبعوا منه نسخا عديدة يوزعونها فى جميع الجيش حتى لمن كان منهم فى غير مصر من قرى الأرياف ؛ فتجد أخبار الأمس معلومة للجليل والحقير منهم . . . . »[٢]

وقد أخطأ كل من جورجى زيدان ، والأب لويس شيخو فهم هذا النص ؛ فأثبتا فى كتابيهما عن تاريخ الآداب العربية فى القرن ١٩ أن هذه السجلات التى كان يكتبها الخشاب تعتبر أول صحيفة عربية صدرت فى الشرق ؛ قال زيدان : « إن هذه النشرة التى كان يدونها الخشاب ، وتطبع ثم توزع على الجنود تشبه أن تكون أول جريدة عربية رسمية لكنها عسكرية »[٣] . ثم قال فى نفس المرجع ص ٥٢ إن الفرنسيين

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٤٤ — ١٤٥ ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

(٣) جورج زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، ص ١٢ .

أنشأوا فى مصر « ديوانا للقضايا كان يصدر صحيفة اسمها « التنبيه » ينشرون فيها ما يجرى فيه . ويفرقونها على العمال . وكان يحررها السيد إسماعيل الخشاب . فهى كالصحيفة العسكرية أو القضائية »

وقال شيخو استنتاجا من نص الجبرتى : «فهذه كما ترى جريدة يومية وهى أول جريدة ظهرت فى العربية »[١] . وواضح جدا من عبارة الجبرتى أن الخشاب لم يكن إلا كاتب الديوان أو مسجل مضبطته وإذ كانت هذه العناية بتدوين ما يقال فى الديوان جديدة وغريبة على الجبرتى فقد عللها بعناية القوم « بضبط الحوادث اليومية فى جميع دواوينهم » لأنهم كانوا «يجمعون المتفرق فى ملخص» ويوزعونه «فى جميع الجيش» ولا يعقل أن يوزع هذا الملخص فى جميع الجيش — الفرنسى طبعا — باللغة العربية . والصحيح أن هذا الملخص الذى كان يطبع وتوزع نسخ منه فى جميع الجيش حتى لمن كان فى الأرياف هو الصحيفة الفرنسية Le Courier de l'Egypte التى كانت تصدر[٢] كل ٥ أيام .

وقد يكون الباعث لهذين المؤرخين على هذا الاستنتاج ما ذكره الجبرتى بعد ذلك من أن الخشاب اختار لنفسه بعض ما ورد فى هذه المضابط . فإنه يقول : «فجمع من ذلك عدة كراريس ولا أدرى ما فعل بها » . والذى تذكره المراجع الفرنسية أن الجنرال « مينو » أصدر مرسوما فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٠٠ بانشاء جريدة عربية اسمها «التنبيه[٣]

(١) شيخو ، آداب اللغة العربية فى القرن ١٩ ، ج ١ ، ص ١٥ — ١٦ .

(٢) ابراهيم عبده ، تاريخ الوقائع المصرية ، ص ٥ .

(٣) Roussau, Kleber et Menou en Egyqte, pp. 375 — 377 ; Rigault, Le General Abdalla Menou et la dernière phase de 'lexpedition d' Egypte' p. 161.

l'Avertissment » واختار السيد إسماعيل الخشاب ليكون رئيسا لتحريرها، وذلك تحت إشراف أعضاء الديوان من العلماء . ويكون من أغراضها البحث فى أعمال الديوان وأعمال الحكومة الفرنسية ونشر الأخبار الداخلية والخارجية و بعض المقالات فى الفنون والعلوم و الأخلاق... إلخ ويقول الدكتور إبراهيم عبده : « على أن الآمال التى علقت على ظهور التنبيه لم تتحقق إذ أن الظروف السياسية واضطراب الأمن كل ذلك حال دون ظهور الجريدة . وبقى مرسوم إنشائها معطلا حتى جلا الفرنسيون عن مصر » (١) .

وقد ظل الخشاب يلى وظيفته هذه فى الديوان « ضحوة يومين فى الجمعة ، طول عهد « مينو » حتى خرجت الحملة من مصر وذلك مقابل أجر شهرى قدره سبعة آلاف نصف فضة

وكانت الصداقة تربط بين هذين العالمين — وأحدهما مؤرخ والثانى شاعر — وبين عالم ثالث جليل هو الشيخ حسن العطار ، يقول الجبرتى عن صديقيه : « فكانا كثيرا ما يبيتان بدارى لما بينى وبينهما من الصحبة الأكيدة والمودة العتيدة ، فكانا يرتاحان عندى ويطرحان التكلفات . . . ثم يتجاذبان أطراف الكلام فيجولان فى كل فن من الفنون الأدبية والتواريخ والمحاضرات . . . . وكانت تجرى بينهما منادمات أرق من زهر الرياض ، وأفتك بالعقول من الحدق المراض وهما حينئذ فريدا وقتهما ووحيدا عصرهما . . . (٢)

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦ .

(٢) عجائب الآثار ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ ؛ وفى الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٧٢ صورة خطاب ورد إليه من صديقه العطار فى سنة ١٢١٥ هـ ، وكان حينذاك مقيما فى أسيوط ، يصف له فيه الطاعون الذى انتشر فى جميع أنحاء مصر فى تلك السنة

وكانت أسرة العطار مغربية الأصل . كما كان أبوه عطارا . ولكن الشيخ حسن مال لدراسة العلم منذ الصغر، فشجعه أبوه على ذلك وأعانه ، فشب شغفا بالعلم والبحث فى كل غريب، وكان شخصية فذة، وامتاز على أقرانه بعقلية حرة ناضجة، فأحس بأن العلوم التى كانت تدرس فى الأزهر حينذاك علوم فجة لا طائل تحتها ، فدرس بنفسه علوم الهيئة والطب والفلك والرياضة ، ومرن على استعمال الاسطرلاب وألف رسالة فى كيفية العمل به وبالربعين المقنطر والمجيب ، وكان يحسن عمل المزاول الليلية والنهارية(١)

ويقول صديقه ومعاصره الشيخ محمد شهاب الشاعر إنه : « كان آية فى حدة النظر وشدة الذكاء . ولقد كان يزورنا ليلا فى بعض الأحيان فيتناول الكتاب الدقيق الخط الذى تعسر قراءته فى وضح النهار، فيقرأ فيه على نور السراج وهو فى موضعه ، وربما استعار منى الكتاب فى مجلدين فلا يلبث عنده إلا الأسبوع أو الأسبوعين ، ويعيده إلى ، وقد استوفى قراءته وكتب فى طرره على كثير من موضعه . . . »(٢)

ويذكر تلميذه وصديقه رفاعة أنه كان معنياً بالبحث فى العلوم غير الدينية ، وخاصة العلوم الجغرافية والتاريخية، وأنه وجد بخطه هوامش على كتاب تقويم البلدان لأبى الفداء، وعلى طبقات الأطباء وغيره من الكتب التاريخية ، وأنه « كان يطلع دائما على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية مع

---

(١) أنظر: زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، ص ٢٢٣ ؛ وشيخو ، الآداب العربية فى القرن ١٩ ، ج ١ ، ص ٤٧ .

(٢) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٤ ، ص ٤٠ .

غاية الديانة والصيانة وله بعض تآليف فى الطب وغيره . . . »(١)

وذكر المستشرق الأنجليزى المستر لين : Mr. Lane. أن الشيخ العطار كان واحداً من أكبر علماء مصر الممتازين وقت وجوده بها ؛ ولكنه أشار إلى أنه لم يكن متضلعا فى العلوم الدينية تضلعه فى الدراسات الأدبية (٢)

وعندما وصلت الحملة الفرنسية إلى مصر كان العطار فى الثانية والثلاثين من عمره فسافر إلى أسيوط ، فلما استقرت الاحوال عاد إلى القاهرة ؛ يقول على مبارك باشا : « واتصل بناس من الفرنساوية ، فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم ويفيدهم اللغة العربية ، ويقول : إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها ، ويتعجب بما وصلت إليه تلك الأمة من المعارف والعلوم ، وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطريق الاستفادة(٣)

أيقظت الحملة الفرنسية إذن عقول بعض علماء مصر وخاصة عقول هؤلاء الاقطاب الثلاثة . وبهرتهم علوم الفرنسيس وأثرت فى فن كل منهم ، فكانت كتابة الجبرتى » فى تاريخه بعد الحملة أدق وأكثر نقداً

---

(١) رفاعة ، مناهج الألباب ، ص ٣٧٥ — ٣٧٦ .

(٢) Lane, The Manners and Customs of theModern Egyqtians, p. 22 .

حيث كتب تقريظا للعطار ، وقال إنه كتبه إجابة لرغبته لأنه عندما علم أن مستر لين سيكتب بعد عودته لبلاده كتابا عن مصر وأهلها طلب منه أن يشير الى معرفته به ، وأن يذكر رأيه فيه .

(٣) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٤ ، ص ٣٨ .

لسير الحوادث ورجالها مما كانت عليه قبل الحملة . . . »[1] ؛ كما أصبح شعر الخشاب أرق حاشية وأسلس أسلوبا ؛ أما العطار فقد انحرف عن علماء عصره وترك الدراسات الدينية واللغوية جانبا . وعنى عناية كبيرة بالدراسات الأدبية، وكون له فى هذا الميدان مدرسة جديدة كان من تلاميذها الذين حذوا حذوه: الشيوخ إبراهيم الدسوقى، ومحمد عياد الطنطاوى ، ومحمد عمر التونسى، ورفاعة رافع الطهطاوى وسيكون لهذه النخبة الطيبة جهود محمودة فى حياة الترجمة الحافلة فى عصر محمد على

وقد عاش الشيخ العطار حتى ولى مشيخة الازهر فى عهد محمد على ، وشهد هذا التغير فى الاحوال والمعارف الذى تنبأ به، وخطب فى الاحتفال الذى عقد بمناسبة عقد الامتحانات الاولى لمدرسة الطب ، وهو أخيرا صاحب الفضل على تلميذه رفاعة الطهطاوى زعيم النهضة العلمية الحديثة ، وهو الذى قدمه لمحمد على ليكون إمام البعثة المصرية إلى فرنسا (سنة ١٨٢٦ م) ، وهو الذى أشار عليه أن يسجل مشاهداته فى هذه البعثة التى أخرجها رفاعة فيما بعد فى كتابه الممتع « تخليص الابريز إلى تلخيص باريز »

* * *

بدأت إذن الثقافتان الفرنسية والعربية تتصلان إحداهما بالاخرى وتؤثران إحداهما فى الأخرى ، ولو قدر للحملة أن تطول مدتها لكان من المحتم أن يعمل كل فريق على نقل ثقافة الفريق الآخر إلى لغته . وخاصة أن علماء الحملة كان من بينهم عدد من المستشرقين . وكانت

(١) عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٢٤ .

مكتبتهم تضم كتبا عربية وفرنسية كثيرة أحضروها معهم . وكانت مكتبات المساجد والخاصة فى مصر تضم بين جدرانها آلاف الكتب المخطوطة التى كانت تنتظر فى صبر نافد من يفتحها ليقرأها ويعدها للنشر أو للترجمة، وكانت الحملة أخيرا قد أحضرت معها عدة هذا النشر وآلته وهى « المطبعة العربية » أو «مطبعة جيش الشرق» أو « مطبعة الجيش البحرى » كما كانت تسمى وهى فى طريقها إلى مصر .

وكانت هذه المطبعة معدة بالحروف العربية والفرنسية[١] واليونانية التى جمعها لها نابليون من باريس ثم استكمل لها الأحرف العربية الناقصة من مطبعة «البروباجندا»[٢] بروما، وقد بدأ القسم العربى من هذه المطبعة عمله وهو على ظهر البارجة « اوريان L'orient » فى عرض البحر . فطبعت به نسخ من الترجمة العربية للمنشور الذى أعده نابليون لإذاعته على المصريين، وعند ما نزل جنود الحملة الفرنسية إلى أرض مصر سميت مطبعتهم « بالمطبعة الشرقية » و « المطبعة الفرنسية » ، وأمر نابليون أن تنقل بأقسامها الثلاثة إلى منزل قنصل البندقية بالمدينة ، وأن تركب أجزاؤها وتكون معدة للعمل فى ثمان وأربعين ساعة ، وأن تطبع أربعة آلاف نسخة أخرى من المنشور ؛ ولما استقر الفرنسيون فى

---

(١) انظر Dunne : Printing and Translations under Muhammad Ali of Egypt. p. 327.

(٢) كتب نابليون وهو يعد العدة للحملة إلى العالم الرياضى «مونج» والجنرال « دبزيه » اللذين كانا فى روما وقتذاك يوصيهما بالاستيلاء على القسم العربى من مطبعة البروباجندا ، وأن يتفقا مع عدد من المترجمين فى ذلك الوسط الذى يكثر فيه العارفون باللغات الشرقية والغربية . أنظر : Bachatly. Un Membre Oriental du Premier Institut d'Egypte. p. 243.

القاهرة نقلت هذه المطبعة إليها ، وسميت « المطبعة الأهلية [1] » ، و « مطبعة الجمهور الفرنساوى » ، وكان مقرها الأول دار عثمان بك الأشقر بالأزبكية على مقربة من بيت الألفى حيث كان يسكن نابليون ؛ ولما قامت ثورة القاهرة الثانية نقلت المطبعة إلى الجيزة ، ومنها نقلت مرة أخرى إلى القلعة وهى مقرها النهائى ، فقد أخذها الفرنسيون معهم وهم يجلون عن مصر ، وسنرى أن محمدا عليا سيعنى بعد ذلك بانشاء مطبعة عربية أخرى فى بولاق ، وهى التى لا تزال موجودة حتى الآن وتاريخها فى الواقع شطر كبير من تاريخ النهضة العلمية الحديثة .

---

(١) ذكر هذه الأسماء المختلفة للمطبعة Charles-Roux. Bonaparte, Gouverneur d'Egypte, p. 139. وإن كان الجبرتى يسميها وهى فى القاهرة أيضاً « بالمطبعة الفرنساوية » ؛ عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٩١ ؛ وقد ذكر على غلاف « مجمع التحريرات المتعلقة إلى ما جرى بأعلام ومحاكمة سليمان الحلبى قاتل صارى عسكر العام كليبر » أنه طبع بمصر القاهرة بمطبعة الجمهور الفرنساوى فى سنة ٨ من اقامة الجمهورية .

الفصل الثاني

الترجمة الرسمية في عهد الحملة

حاجة رجال الحملة إلى الترجمة الرسمية ، استعانتهم بأسرى المسلمين فى مالطة وخاصة
المغاربة ، المترجمون فى ديوان « مينو » ، هيئات المترجمين الرسميين فى عهد الحملة :
أسرى المسلمين فى مالطه ؛ المستشرقون من رجال الحملة : « ڤانتور » ،
« چوبير » ، « براسرفيش » ، « لوماكا » ، « حنا روكه » ، « كليمان » ،
« بوديف » ؛ المترجمون السوريون ، هجرات « الشوام » إلى مصر
منذ بدء القرن ١٨ ، الحملة تصطحب مترجمين سوريين من إيطاليا :
دون إلياس فتح الله ، يوسف مسابكى ، أنطون مشحرة ؛
مترجمون سوريون من مصر : يوسف فرحات ،
ميخائيل كحيل ، القس رفاييل ، إلياس فخر ،
نصر الله ، عبود وميخائيل الصباغ ، نقولا
الترك ؛ المترجمون المصريون ، صلة
الأقباط بالفرنسيين ، الفرنسيون
يعلمون بعض الشبان الأقباط اللغة
الفرنسية ، إليوس بقطر ،
الرأى فى الترجمة الرسمية
فى عهد الحملة .

ولكننا قد نتساءل بعد هذا . ألم يكن للحملة — على الرغم مما كان يكتنفها فى الداخل والخارج من اضطرابات وقلاقل — أثر فى الترجمة عن العربية إلى الفرنسية أو عن الفرنسية إلى العربية فى هذه السنوات الثلاث التى قضتها فى مصر .

والحقيقة أننا نستطيع أن نجيب على هذا السؤال بأنه كان فى مصر

إبان وجود الحملة بها نوعان من الترجمة : ترجمة رسمية ، وترجمة علمية .

فالحملة من الناحية الرسمية كان لها أثر فى هذا النقل ، وكانت فى أشد الحاجة إلى مترجمين دائمين ينقلون عنها الأوامر ، ويترجمون المنشورات ويسجلون محاضر الدواوين ، ويكونون الوسطاء فى نقل الحديث بين الحكام والمحكومين . وقد استعانت أول الأمر بأناس غرباء عن مصر أحضرتهم معها أول قدومها ، وهم جماعة من أسرى البحارة المسلمين الذين كانوا تحت أيدى فرسان القديس يوحنا بجزيرة مالطة ، وقد اشتركوا مع المستشرقين من علماء الحملة فى ترجمة المنشور الذى أعده نابليون بالفرنسية ، والذى طبع على ظهر البارجة « الشرق L'orient » — إحدى سفن الأسطول — فى المطبعة العربية ليكون معداً للتوزيع على المصريين وقت نزول الفرنسيين إلى بر مصر ؛ يقول الجبرتى عن هؤلاء الأسرى : « كانت الفرنسيس حين حلولهم بالأسكندرية كتبوا مرسوما ، وطبعوه ، وأرسلوا منه نسخا إلى البلاد التى يقدمون عليها تطميناً لها ، ووصل هذا المكتوب مع جملة من الأسارى الذين وجدوهم بمالطة ، وحضروا صحبتهم ، وحضر منهم جملة إلى بولاق ، وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم أو بيومين ، ومعهم منه عدة نسخ ، ومنهم مغاربة ، وفيهم جواسيس ، وهم على شكلهم من كفار مالطة ، ويعرفون باللغات . . . [1] » .

---

(١) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٤ ، والترجمة العربية للمنشور ركيكة العبارة ، ضعيفة الأسلوب ، أنظرها فى الجبرتى ، نفس الجزء والصفحة ، أما الأصل الفرنسى فجميل الأسلوب ، وصورته فى الوثيقة رقم ٢٧٢٣

Correspondance de Napoléon, t. IV.

فلما هزم المماليك ، وفروا جنوبا وشرقا ، ووجد المصريون أنفسهم بلا جيش يحميهم أو يدافع عنهم اجتمع شيوخهم وعلماؤهم فى الجامع الأزهر ، « وتشاوروا ، فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الافرنج . . . ، وأرسلوها صحبة شخص مغربى يعرف لغتهم ، وآخر صحبته ، فغابا وعادا ، فأخبرا أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة فقرأها عليه ترجمانه ، ومضمونها الاستفهام عن قصدهم ، فقال على لسان الترجمان « وأين عظماؤكم ومشايخكم ؟ ؟ » (١) .

ولما استقر الفرنسيون فى القاهرة أخذوا يتتبعون من بقى بها من عائلات المماليك ، ويهاجمون بيوتهم ، ويستولون على أموالهم ، وكانوا فى تنقلاتهم يستصحبون معهم المترجمين ليقوموا بنقل الحديث بينهم وبين زوجات الأمراء ، وأولادهم ، وخدمهم ؛ يذكر الجبرتى فى حوادث شهر ربيع الأول سنة ١٢١٣ هـ أن جماعة من جنود الفرنسيين ذهبوا إلى « بيت رضوان كاشف . . . وصحبتهم ترجمان ومهندس » (٢) .

وبدأ نابليون يضع الأسس لحكومة جديدة يشترك فيها زعماء المصريين ، ليستعين بهم فى إدارة شئون البلاد ، وإقناع الأهلين ، وقد نص فى الأمر الصادر بتكوين الديوان أن يكون أعضاؤه تسعة ينتخبون من بينهم واحداً للرياسة ، وأن يختاروا سكرتيرا « كاتم سر » من غير الأعضاء ، ويعينوا اثنين من الكتبة والتراجمة يعرفان الفرنسية والعربية .

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٦ .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٦ .

والجبرتى يتحدث عن بعض أعمال هذين المترجمين فى شذرات متفرقة نستطيع أن نتبين منها أن « الترجمان » كان الناقل لأوامر الفرنسيين ، والقارىء لأوامرهم وفرماناتهم فى الديوان ، وأنه كان يضمن كلامه العربى كلمات فرنسية مما يدل على أن هذين المترجمين كانا من علماء الحملة الفرنسيين العارفين باللغة العربية ، يقول الجبرتى عند كلامه عن الجلسة الأولى للديوان : « فلما استقر بهم الجلوس شرع ملطى القبطى الذى عملوه قاضى فى قراءة فرمان الشروط [1] ، وفى المناقشة ، فابتدر كبير المديرين فى إخراج طومار آخر وناوله للترجمان فنشره وقرأه . . . » [2] . ثم يقول عند الكلام على إنتخاب رئيس الديوان : « ثم قال الترجمان : نريد منكم يا مشايخ أن تختاروا شخصا منكم يكون كبيرا . ورئيساً عليكم . . . فقال بعض الحاضرين : « الشيخ الشرقاوى » . فقال : « نو . . . . . نو . . . . . » وانما ذلك يكون بالقرعة . . . إلخ » [3] .

---

(١) هذه الوثائق من منشورات ، وفرمانات ، وأوامر ، وخطب ، ... الخ كتبت كلها أولا باللغة الفرنسية ، وأصولها موجودة فى المراجع الفرنسية التى كتبت أيام الحملة الفرنسية وعنها ، ولكن توجد صور لترجمة الكثير منها متفرقة فى الجبرتى بعجائب الآثار ، أنظر مثلا : منشور نابليون للمصريين ، ج ٣ ، ص ٤ — ٥ ، وخطبة افتتاح الديوان ، ج ٣ ، ص ٢٣ ، وترجمة خطاب وارد من نابليون لأعضاء الديوان أثناء حصاره لعكا ، ج ٣ ، ص ٧١ ... الخ ... الخ ؛ والرافعى يقارن كثيرا بين الأصل والترجمة فى هوامش الجزء الأول من تاريخ الحركة القومية . ويبين دائما مواطن الضعف فى الصورة العربية ، والاختلاف بين الأصل والترجمة .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٢٣ .

(٣) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤ .

وأراد نابليون أن يصبغ المجتمع المصرى بالصبغة الفرنسية . فانتهز فرصة اجتماعه بالمشايخ الذين اختيروا أعضاء للديوان ، وأحضر لكل منهم طيلسانا وشارة مثلثى الألوان ، وبدأ فألبس الطيلسان للشيخ الشرقاوى ، فثار ، وألقى به إلى الأرض ، « واستعفى ، وتغير مزاجه ، وامتقع لونه ، واحتد طبعه ، فقال الترجمان : « يامشايخ أنتم صرتم أحبابا لصارى عسكر ، وهو يقصد تعظيمكم ، وتشريفكم بزيه وعلامته . . . . » وغضب نابليون لفعلة الشرقاوى غضبا شديدا ، « وتكلم بلسانه ، وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال : عن الشيخ الشرقاوى إنه لا يصلح للرياسة . . . إلخ »[1] .

ولم يكن الشيخ السادات بين الحاضرين ، ولكنه أتى بعد انصرافهم « فلما استقر به الجلوس بش له وضاحكه صارى عسكر ، ولاطفه فى القول الذى يعربه الترجمان ، وأهدى له خاتم الماس[1] » ، ثم ألبسه الشارة المثلثة الألوان ، فلم ير كزملائه أن لبسها كفراً ، بل تركها حتى خرج فنزعها .

وعند ما أصدر الفرنسيون أوامرهم بتنظيم دفن الموتى ، وشرع بعض رجالهم فى هدم التراكيب المبنية على المقابر فى مقبرة الازبكية ، وتسويتها بالأرض ، ثار القاهريون وخرجوا فى مظاهرة كبيرة إلى بيت نابليون ، « ووقفوا تحت بيت صارى عسكر ، فنزل لهم المترجمون واعتذروا بأن صارى عسكر لا علم له بذلك . . . »[2] .

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢ .

وذكر الجبرتى عند كلامه على تنظيم الديوان فى عهد نابليون ، وتقسيمه إلى « خصوصى وعمومى » أسماء أعضاء الديوان ، ثم قال : « ومعهم وكلاء ومباشرون من الفرنسيس ، ومترجمون . . . »[1] .

هذا ، ولم تخضع أطراف مصر للفرنسيين فى الحال ، فأرسل نابليون جنوده لإخضاع الصعيد[2] ، وشمال الدلتا الشرقى ، وتنظيم هذه البلاد ، ثم كونت فى عواصم المديريات دواوين صغيرة على نمط الديوان الكبير فى القاهرة ، وكان يصحب هذه الكتائب من الجيش الفرنسى ، ويعين رجال الإدارة منهم فى حكم الأقاليم نفر من هؤلاء المترجمين ، كذلك اصطحب الجيش الفرنسى بعضاً منهم معه فى حملته على الشام .

الجبرتى أيضا أن المشايخ والأعيان ذهبوا لمقابلة نابليون والسلام عليه بعد عودته من الأسكندرية عقب موقعة أبى قير البرية ، « فلما استقر بهم المجلس قال لهم على لسان الترجمان : إن صارى عسكر يقول لكم إنه لما سافر إلى الشام كانت حالتكم طيبة فى غيابه ، وأما فى هذه المرة فليس كذلك ، لأنكم كنتم تظنون أن الفرنسيس

(١) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

(٢) توجد فى دار الكتب وثيقة من ورقة واحدة بها قائمة تشتمل على بيان الكلف المأخوذة من البلاد الأطفيحية لاحتياج العسكر الفرنساوى المطارد لمراد بك ابتداء من يوم الأربعاء ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٢١٤ (٢٠ نوفمبر سنة ١٧٩٩) لغاية يوم ١٠ رجب من نفس السنة (٨ ديسمبر سنة ١٧٩٩ م) ، وهى جداول مبين فيها ما أخذ من الأغنام ، والبقر وخلافها من كل بلدة من البلاد المذكورة ، وفى أحد وجهى الورقة ترجمتها باللغة الفرنسية ، انظر فهرس الكتب العربية الموجودة بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٩٣ .

لا يرجعون ، بل يموتون . . . . وأن المهدى والصاوى ما هم « بونو » أى ليسوا بطيبين »[١] .

وعاد نابليون إلى فرنسا ؛ وولى كليبر قيادة الحملة ؛ فظل للترجمة الرسمية شأنها الاول ؛ وللمترجمين مركزهم الهام كوسطاء لنقل الحديث بين الحكام والمحكومين وترجمة الاوامر والفرمانات والوثائق الرسمية ، يقول الجبرتى عند كلامه على مشروع اتفاقية العريش : « ولما ورد ذلك الطومار المتضمن لعقد الصلح والشروط عربوه وطبعوا منه نسخا كثيرة فرقوا منها على الاعيان ؛ وألصقوا منها بالاسواق والشوارع »[٢] .

ولما قتل القائد كليبر كونت محكمة فرنسية خاصة لمحاكمة المتهمين ؛ وألف الفرنسيون « فى شأن ذلك أوراقا ذكروا فيها صورة الواقعة ؛ وكيفيتها ؛ وطبعوا منها نسخا كثيرة باللغات الثلاث . الفرنساوية ؛ والتركية ، والعربية . . . » ، وطبعوا « من كل لغة قدر خمسمائة نسخة لكى يرسلوا ويتعلقوا فى المحلات اللازمة . . »[٣] .

وكان الديوان قد عطل فى عهد « كليبر » ، فلما ولى «مينو» قيادة الحملة أعاد تنظيمه على نسق جديد كما ذكرنا ، وعين له — إلى جانب الاعضاء

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٨١ .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٨٧ .

(٣) عنوان هذه الرسالة باللغة العربية : « مجمع التحريرات المتعلقة إلى ماجرى بأعلام ومحاكمة سليمان الحلبى قاتل سارى عسكر العام كليبر » وطبعت « بمصر القاهرة بمطبعة الجمهور الفرنساوى فى سنة ٨ من إقامة الجمهور » وانظر أيضا : الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٢٢ ، ١٤٠ ، وفى الصفحة المقابلة صورة للصفحة الأولى من هذا الكتاب النادر .

الشكل رقم (٢)

مجمع التحريرات المتعلقة
الى ماجرى باعلام
ومحاكمة سليمان الحلبي ٥٢٨٨
قاتل صارى عسكر
العام كلهبر

بمصر القاهرة
بمطبعة الجمهور الفرنساوي

في سنة ٨ من اقامة الجمهور

صورة الصفحة الأولى من الكتاب المتضمن للترجمة العربية لمحاضر محاكمة سليمان الحلبي وهو من الكتب القليلة التى ترجمت فى عهد الحملة وطبعت بمطبعتها بالقاهرة .

من المشايخ — كاتبا عربيا اسمه « الشيخ على » وكاتبا « يوميا » اسمه « قاسم أفندى » ومترجما أول — أو ترجمان كبير — هو « القس روفائيل » ومترجما ثانيا — أو ترجمان صغير على حد تعبير الجبرتى — هو — الياس نخر الشامى » وجعل مقر هذا الديوان بيت رشوان بك فى حارة عابدين ، وتخصص جناح من هذا البيت لسكن « الوكيل الكومسيير Commissaire فوريه » ، « وأعدوا للمترجمين والكتبة من الفرنساوية مكانا خاصا يجلسون به فى غير وقت الديوان على الدوام لترجمة الأوراق ، والوقائع ، وغيرها »[1]

ووصف الجبرتى هيئة انعقاد جلسات الديوان فقال إنه : « إذا تكامل حضور المشايخ يخرج إليهم الوكيل فوريه ، وصحبته المترجمون ، فيقومون له ، فيجلس معهم ، ويقف الترجمان الكبير رفائيل ، ويجتمع أرباب الدعاوى ، فيقفون خلف الحاجز عند آخر الديوان . . وعنده الجاويش . . ويدخلهم بالترتيب . الأسبق فالأسبق ، فيحكى صاحب الدعوى قضيته ، فيترجمها له الترجمان . . . الخ »[2] . وكان عمل المترجم الأول فى هذا الديوان يشبه عمل سلفه فى ديوان نابليون إذ كان يقوم إلى جانب الترجمة بقراءة الأوامر والرسائل والفرمانات ، فقد ذكر الجبرتى فى حوادث شعبان سنة ١٢١٥ هـ أن صارى عسكر أرسل « إلى مشايخ الديوان كتابا ، وقرأه الترجمان الكبير رفائيل . . . »[3] .

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٤٥ وهو هنا مصدر ثقة — لأنه كان عضوا بهذا الديوان كما ذكرنا .

(٣) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٤٩ ، وانظر أيضا : ص ١٥٥ .

ولما حضرت الحملة الإنجليزية التركية فى سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١) لإخراج الفرنسيين كانت الرسائل تأتى تباعا من الجنرال « مينو » فى الاسكندرية إلى أعضاء الديوان فى القاهرة ، وبدأ الفرنسيون يتقربون إلى المصريين حتى لا ينتهزوا الفرصة فيثوروا ضدهم ، ويزيدوا فى متاعبهم ، ذكر الجبرتى فى حوادث المحرم سنة ١٢١٦ هـ أن القائمقام « بليار » استدعى إليه مشايخ الديوان و « قال لهم على لسان الترجمان : نخبركم أن الخصم قد قرب منا ، ونرجوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنساوية ....»[١] .

وانتهت المعارك بين الجيشين بالصلح والاتفاق على أن يجلو الفرنسيون عن مصر ، وتعود البلاد إلى السلطان ، وفى القاهرة أعلنت الشروط الخاصة بالشعب « فى أوراق ألصقت بالطرق مكتوبة بالعربى والفرنساوى وفيها شرطان من شروط الصلح التى تتعلق بالعامة » .

وفى نفس الشهر دعى الديوان للاجتماع ، « وحضر المشايخ والوكيل ، فقال الوكيل : هل بلغكم بقية الشروط الثلاثة عشر؟ فقالوا : « لا » فأبرز ورقة من كمه بالقلم الفرنساوى ، فشرع يقرؤها ، والترجمان يفسرها ... الخ»[٢] .

وبعد أيام عقد الديوان آخر جلساته ، « فاجتمع المشايخ والتجار وبعض الوجاقلية « واستوف » الخازندار ، والوكيل ، والترجمان ، فلما استقر بهم الجلوس أخرج الوكيل كتابا مختوما ، وأخبر أن ذلك

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٨٨ .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٩٣ .

السلناب من سارى عسكر « مينو » بعث به إلى مشايخ الديوان ، ثم ناوله لرئيس الديوان ، ففضه وناوله للترجمان فقرأه ... الخ » ، ثم أخرج الوكيل « ورقة بالفرنساوى » وقرأها بنفسه حتى فرغ منها ، ثم قرأ ترجمتها بالعربى الترجمان رفاييل ، ومضمونها حصول الصلح وتمويهات ، وهلسيات ليس من ذكرها فائدة ، ولما انتهى من قراءتها أبرز أيضا « استوف » الخازندار ورقة ، وقرأها بالفرنساوى ، ثم قرأ ترجمتها بالعربى الترجمان وهى فى معنى الأولى ...»[1].

وبعد فهذه نبذ متفرقة مما ذكره الجبرتى عن الترجمة الرسمية يؤيد ماذهبنا إليه من أن هذا النوع من الترجمة كان له خطره وأهميته أثناء وجود الحملة الفرنسية فى مصر ، غير أن المراجع المعاصرة لم تعن بذكر ثبت بهؤلاء المترجمين أو التعريف بهم ، ومع هذا ففى الفقرات الآتية محاولة لهذا الإحصاء ، وهذا التعريف .

هيئات المترجمين الرسميين فى عهد الحملة :

من الممكن أن نقسم جماعة المترجمين الرسميين فى عهد الحملة إلى الهيئات الآتية :

١ — الأسرى الذين كانوا فى جزيرة مالطة[2] من مغاربة وعرب وأتراك ، وقد أطلق سراحهم رجال الحملة الفرنسية بعد استيلائهم على مالطة ، وصحبوهم معهم إلى مصر ، وأطلقوهم فى كل مكان يوزعون

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢) Cavinet, l'Imprimerie de l'Expedition, etc. pp. 8-9.

منشور نابليون بين المصريين ، وقد قام واحد منهم يحمل رسالة المشايخ إلى نابليون وهو فى الجيزة — كما ذكرنا — ولم تذكر الكتب المعاصرة اسم واحد من هؤلاء .

٣ — العارفون باللغة العربية من رجال الحملة الفرنسية ، وأهم هؤلاء :

(١) فانتور Venture

وهو أحد أعضاء لجنة الترجمة بالمجمع المصرى ، وأكبر أعضاء هذا المجمع سنا ، قضى أربعين سنة من حياته فى الشرق ، فكان مترجما بالسفارة الفرنسية فى تركيا ، ثم مترجما للغات الشرقية للحكومة الفرنسية فى باريس ، ثم مدرسا للغة التركية فى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس ثم صحب الحملة إلى مصر فكان كبير مترجميها ، أو «ترجمان سارى عسكر» كما يسميه الجبرتى ، وكان نابليون يقدره ، ويثق به ثقة كبيره ، ويرجع إليه فى كل ما يتعلق بالشرق والشرقيين ، ومن تلاميذه المعروفين المسيو مارسيل ، والمسيو جوبير الآتى ذكرهما .

ولما سار نابليون بحملته إلى سوريا استصحب معه المسيو «فانتور» ولكنه مرض هناك بالدسنطاريا ، ومات فتألم نابليون لموته ، وأرسل بنعيه إلى الديوان فى خطاب تاريخه المحرم سنة ١٢١٤ هـ (يونيو سنة ١٧٩٩) قال فيه : «وفنتوره مات من تشويش ، هذا الرجل صعب علينا جدا ، والسلام ... » وعقب الجبرتى على هذا الخبر بقوله : «وفنتوره هذا ترجمان سارى عسكر ، وكان لبيبا متبحرا ، ويعرف باللغات التركية والعربية ، والرومية ، والطليانى ، والفرنساوى »[1].

(٢) جوبير Piere Amébee Jauper (١٧٧٩ — ١٨٤٧)

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٧١ .

أحد المستشرقين من علماء الحملة ، وواحد من تلاميذ «دى ساسى» تخرج فى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس ، وكان تلميذاً لڤانتور ، فلما توفى الأستاذ اختار نابليون تلميذه ليشغل مركزه ، ويكون كبيراً لمترجمى الحملة ، وقد كتب أبحاثا كثيرة[1] نشرت فى كتاب وصف مصر ، وبعد جلاء الحملة عين مدرسا للغة التركية فى مدرسة اللغات الشرقية ، ثم اختير مدرسا للفارسية فى «الكوليج دى فرانس» ، وفى أخريات أيامه عين ناظراً لمدرسة اللغات الشرقية .

(٣) براسرفيش .

أحد أعضاء لجنة الترجمة بالمجمع المصرى ، ويسميه الجبرتى : «السيتوين الخواجة داميانوس براشويش كاتم السر وترجمان سارى عسكر»[2] ويبدو أنه خلف «جوبير» فتولى هذا المركز بعده فى عهد «الجنرال مينو» وقد قام بالاشتراك مع زميله لوماكا «l'Homaca» بترجمة أقوال المتهمين بقتل الجنرال «كليبر»

(٤) لوماكا «l'Homaca»

عضو آخر من أعضاء لجنة الترجمة بالمجمع ، وقد اشترك مع زميله «براسرفيش» كما ذكرنا فى النقل عن سليمان الحلبى وزملائه ، وترجمة

(١) وقد ترجم «جوبير» جغرافية الشريف الأدريسى «نزهة المشتاق» إلى اللغة الفرنسية فى مجلدين ، وطبعت فى باريس سنة ١٨٣٦ — ١٨٤٠ ، أنظر : شيخو ، المرجع السابق ، ج ١ ص ٦٦ .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، وانظر أيضاً : «مجمع التحريرات المتعلقة إلى ما جرى بأعلام ومحاكمة سليمان الحلبى» . ص ١٣ ، ٤٧ ، ٥٧ .

الشكل رقم (٣)

يخبرهم ام يرسل هم حالا ساعي

فبعد خلاص الفحص المذكور انقرا على

المتهوم وهو حرر خط يده مع المبلغ وكاتم السر

والترجمان

حرر بمصر في اليوم والشهر والسنة المحررة اعلاة

امضة سليمان الحلبي بالعربي

امضة المبلغ سارتلون

امضة الترجمان براشويش

امضة كاتم السر بينه

صورة الصفحة ٤٧ من الكتاب المتضمن الترجمة العربية لمحاضر محاكمة سليمان الحلبي قاتل الجنرال كليبر وبها اسم واحد من مترجمى الحملة وهو « برا شويش » وقد طبع هذا الكتاب بمطبعة الحملة بمصر

أقوالهم أثناء التحقيق معهم ، وكانت له جهود أخرى فى ترجمة الوثائق الرسمية[١] كرسائل « مينو » التى أرسلها فى أيام الحملة الأخيرة من الأسكندرية إلى أعضاء الديوان بالقاهرة .

ويبدو أن هؤلاء الأقطاب الأربعة كانوا يكونون الهيئة العليا للترجمة الرسمية ، فقد كانوا جميعا أعضاء فى لجنة الترجمة بالمجمع العلمى أو «مدرسة العلماء فى بر مصر»[٢] ، وشغل ثلاثة منها منصب كبير مترجمى الحملة أو « ترجمان صارى عسكر » ، واشترك الرابع فى ترجمة كثير من الوثائق الرسمية الهامة .

ومع هذا فقد كان هناك نفر آخرون من جنود الحملة وقوادها على علم بالعربية ، فساهموا بقسط أقل فى الترجمة الرسمية ؛ من هؤلاء :

ا — « حنا روكه »[٣]، وقد اشترك مع «براسرفيش» و«لوماكا» فى ترجمة بعض أقوال المتهمين بقتل « الجنرال كليبر » .

ب — « كليمان » ذكر الجبرتى أنه كان يقوم أحيانا بالترجمة فى بعض جلسات الديوان ، قال فى حوادث ذى الحجة ١٢١٥ ﻫ (ابريل ١٨٠٠) : « حصلت الجمعية ، وحضر الخازندار ، والوكيل ... وبعض التجار .. ، و « كليان » الترجمان ، فتكلم «استوف» ، وترجم

---

(١) أنظر جهوده فى ترجمة أقوال الحلبى وزملائه فى : «مجمع التحريرات ..الخ» ص ١٣ ، ٣٤ ، ٥٧ ، ٦٣؛ والجبرتى ، الصفحات المذكورة فى الهامش السابق؛ أما عن الوثائق الأخرى فقد ذكر الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٩٤ إحدى رسائل « مينو » للديوان ، وقال فى نهاية النص إنه : « من تراكيب لوماكا الترجمان »

(٢) مجمع التحريرات ، ص ٣ .

(٣) مجمع التحريرات ، ص ١٣ .

الشكل رقم (٤).

(١٢)

فقال لهم ان مقصوده يتحدث معه فقالوا له ان كل ليله ينزل في جنينتــه ثم صباح تاريخــه شاف صاري عسكر ماشي للمقياس وبعده مــاشي الي المدينه فتبعــه لحين ما غدره

هذا الفحص صار من حضرة صاري عسكر منو بحضور باقي صواري العساكر الكبار وملازمين بيت صاري عسكر العام ثم انختم بامضة صاري عسكر منو والدفتردار سارتلون في اليوم والشهر والسنة المحرره اعلاه ثم انقري علي المتهوم وهو ايضاً حط خط يده واسمه بالعربي . (سليمان)

امضة صاري عسكر عبد الله منو *
امضة صاري عسكر فريانه *
امضة صاري عسكر رينيه *
امضة صاري عسكر داملس *
امضة الجنرال والنتين *.

(١٣)

امضة الجنرال مورانه *
امضة الجنرال مارتينه *.
امضة دفتردار البحر لروا *
امضة الدفتردار سارتلون *
امضة الترجمان لوماكا *
امضة الترجمان حنا روكه *
امضة داميانوس براشويش كاتم السر وترجمان صاري عسكر العام *

صورة الصفحة ١٢ و١٣ من الكتاب المتضمن الترجمة العربية لمحاضر محاكمة سليمان الحلبي وبها ذكر لثلاثة من مترجمي الحملة وهم : لوماكا ، وحنا روكه ، وبراشويش

عنه الترجمان أن سارى عسكر الكبير «مينو» يقرئكم السلام... الخ»[١]

ج — ومنهم ترجم ثالث اسمه «أبى ديف» هكذا ذكره الجبرتى — فقد وصف الجلسة الأخيرة للديوان بعد أن تم الصلح بين الفرنسيين من ناحية والإنجليز والأتراك من ناحية أخرى، ونقل نص الخطب التى ألقيت فى تلك الجلسة، وكانت آخرها خطبة ألقاها «استوف» باللغة الفرنسية، ثم قرأ المترجم ترجمتها باللغة العربية، قال الجبرتى بعد ذكر هذا النص: «وهو من تعريب «أبى ديف» وإنشاء «استوف» بالفرنساوى ...»[٢].

٣ — المترجمون السوريون:

كان السوريون أكثر شعوب الشرق الأدنى اتصالا واختلاطا بشعوب أوربا المطلة على البحر الأبيض المتوسط فى العصور الوسطى ففى ربوع بلادهم كانت ميادين الحروب الصليبية، وفى شواطىء سوريا قامت الأمارات اللاتينية، وعاش أخلاط من هذه الشعوب اللاتينية، وانتهت الحروب الصليبية، ولكنها خلفت فى الشام طائفة من المسيحيين تدين بالمذهب الكاثوليكى، وتعترف بالولاء لزعيم الكاثوليك ورئيسهم «البابا» المقيم فى روما، ولذلك ظلت رحلة البطارقة والمطارنة

---

(١) الجبرتى، ج ٣، ص ١٦٥.

(٢) المرجع السابق، ج ٣، ص ١٩٦، حوادث صفر ١٢١٦ (يونيو ١٨٠١)؛ و «ابى ديف» هذا هو السيو «بودوف Baudeuf.» التاجر الفرنسى المقيم بالقاهرة. وكان يعرف اللغة العربية، وقد استعان به رجال الحملة فى أعمال كثيرة وخاصة فى الترجمة، أنظر: Histoire Scientifique et Militaire de l'Expédition Francaise en Egypte, t.111.

والقساوسة السوريين دائمة إلى « روما » لزيارة مقر البابوية ، ولتلقى العلوم الدينية فى مدارس « روما » الدينية ، وكثر — تبعا لهذا — العارفون باللغتين الفرنسية والإيطالية بين كاثوليك سوريا .

وفى القرنين السابع والثامن عشر اضطربت أمور الحكم العثمانى ، وزاد طغيان الباشوات الأتراك فى الشام ، ونال الطوائف المسيحية شىء من الاضطهاد ، « ولما ساعد فخر الدين المعنى أمير لبنان الشهير المرسلين الإفرنج الكاثوليكيين على النزول فى سوريا ولبنان وفلسطين ، لجأ فريق من السوريين المسيحيين إلى قناصل الإفرنج ، وتمذهبوا بمذهبهم طمعا فى حماية دولهم ، والفوز بشىء من المساعدة المادية ، فثار عليهم رؤساء الأرثوذكس اليونانيون ، وأخذوا يزرعون البغضاء والتعصب الدينى فى قلوب إخوانهم السوريين الأرثوذكس ، ويلجأون إلى البطريرك القسطنطينى ليستصدروا الأوامر فى اضطهاد الكاثوليك . . فانتهز الحكام العثمانيون هذه الفرصة الثمينة ليضطهدوا المسيحيين من المذهبين الكاثوليكى والأرثوذكسى . . ، فأخذوا ينزحون إلى القطر المصرى فى أوائل القرن الثامن عشر . وزادت مهاجرتهم بعد اضطهاد سنة ١٧٢٥ الشهير ، وكان أغلبهم من دمشق الشام ، فلقبوا بالشوام ، وعم هذا اللقب كل السوريين المهاجرين إلى مصر [١] » .

ولجأ هؤلاء « الشوام » إلى القاهرة أولا ، ودمياط ثانيا ، والاسكندرية ثالثا ، وهى المدن المصرية الكبرى ذات الصدارة حينذاك فى التجارة والصناعة ، واستغلوا فى هذه المدن نشاطهم

---

(١) بولس قرألى ، السوريون فى مصر ، الجزء الأول ، القسم الأول ص ٨٢ — ٨٣ .

التجارى والصناعى الممتاز ، فسرعان ما أثروا ، وكونوا ثروات وجاليات كبيرة لها شأن فى تاريخ مصر الاقتصادى وقتذاك ، ووصلت أخبار هذا النجاح إلى إخوانهم فى سوريا ولبنان فتوالت الهجرات وتتابعت ، لهذا يرجع الأب قسطنطين الباشا هجرة مسيحيي الشام إلى مصر إلى سببين : « قوة الجذب وقوة الدفع ، إذ كانت أخبار نجاح من تقدم منهم إلى هذا القطر تجذب سواهم ، وكان الاضطهاد الدينى الذى كان يجرى فى مدن الشام يدفعهم بقوة إلى هذا القطر »[١] .

وكانت موانىء إيطاليا التجارية ، وخاصة البندقية ، وجنوة ، وليفورنو ، تضم منذ القرن الخامس عشر جاليات شرقية كبيرة ، وإذ كانت موانىء مصر الشمالية على اتصال تجارى دائم بموانىء إيطاليا فقد تجددت رحلة السوريين من مصر إلى موانىء إيطاليا للتجارة أحياناً ، وهرباً من اضطهاد المماليك أحياناً أخرى[٢] .

وقد بلغ من ازدياد نفوذ هؤلاء المهاجرين المالى والاقتصادى أن طغوا على طائفتى اليهود والأقباط اللتين كان لهما احتكار الوظائف المالية فى مصر منذ عهد طويل ، ففى سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ — ١٨٦٩م) « قبض على بك الكبير على المعلم إسحق اليهودى معلم الديوان ببولاق

---

(١) قسطنطين الباشا ، محاضرة فى تاريخ طائفة الروم الكاثوليك فى مصر ، ص ٧ .

(٢) يذكر الباشا ، المرجع السابق ، ص ١٨ ، أسماء أفراد من أسر : سكاكينى وخلاط ، وخير ، وبوكتى ، وحوى ، وعنخورى ، ممن هاجروا الى « ليفورنو » عن طريق دمياط فى القرن السابع عشر .

وضربه حتى مات،[١] ، ثم أعطى التزام هذا الديوان للمعلم ميخائيل فرحات السورى، وأصبح هذا الالتزام المالى الهام وقفا على مسيحيي السوريين منذ ذلك الحين ، فقد حل المعلم ميخائيل الجمل بعد قليل محل ميخائيل فرحات ، ولكن على بك الكبير سرعان ما غضب على الجمل فعزله ، وأعطى الديوان للمعلم يوسف البيطار الحلبى ، فاستغاث الجمل بصديقه المعلم ابراهيم الصباغ مستشار ظاهر العمر أمير عكا ، وحليف على بك ، فأجاب رجاءه، وسعى لدى على بك حتى أعيد الديوان للجمل والبيطار معا ، وفى سنة ١١٨٨ (١٧٧٤م) توفى ، فأعطى التزام الديوان للمعلم « أنطون فرعون قسيس [٢] » زعيم مسيحيي الشام فى مصر وقتذاك ، وأثرى أثريائهم .

---

(١) الجبرتى ، ج ١ ص ٣١١ ؛ وإن كان قرألى ، المرجع السابق ، ص ٨٥ يسميه يوسف بن لاوى الاسرائيلى (؟) .

(٢) أنظر : قرألى ، السوريون فى مصر ج ١ ، ق ١ ، ص ٨٥ — ٨٦ ؛ وج١ ، ق٢ ص ٢٨ ؛ والباشا ، المرجع السابق ، ص ١٤ — ١٦ ، ٥٤ـ٥٧ ؛ هذا وقد كان لأنطون فرعون شأن كبير فيما بعد ، فقد أرادت حكومة الامبراطورية الرومانية المقدسة (دولة النمسا) أن تعيد فتح طريق للتجارة مع الهند ، وندبت لتحقيق هذا المشروع أنطون فرعون قسيس ، وأنعم عليه الامبراطور (يوسف) الثانى بلقبي : (بارون) و (كونت) ، ولكن المشروع لم يتوج بالنجاح فخشى أنطون غضب مراد لإبراهيم ، وفر مع أخوته إلى إيطاليا فى سنة ١١٩٨ (١٧٨٤) حيث أقام فى (تريستا) ؛ وعند ما خرج المعلم يعقوب القبطى من مصر بعد مغادرة الحملة لها ، وعرض مشروعه لاستقلال مصر على انجلترا طلب أن ترسل الكتب إليه عن طريق : (الكونت قسيس) المقيم فى (تريستا) ؛ أنظر: شفيق غربال ، الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ، ص ٢٦ ، هامش ٢ حيث يصف أنطون خطأ بأنه =

لهذا لا نعجب إذا عرفنا أن « نابليون » أرسل — وهو يعد العدة للحملة — إلى العالم «مونج» و «الجنرال ديَزيه» فى « روما » يأمرهما أن يتعاقدا مع بعض المترجمين من الشرقيين المقيمين فى « إيطاليا » ، وقد كان من بين المترجمين الذين تعاقدوا معهم اثنان من السوريين المقيمين فى إيطاليا — من طائفه الروم الكاثوليك — : هما دون الياس فتح الله ويوسف مسابكى(١) ..

وجاء فى مذكرات القس أنطون مارون أن الفرنسيين — وهم فى طريقهم إلى مصر — «طلبوا بعض الشرقيين للترجمة حيث صمموا النية للحضور للأقليم المصرى ، فخرج معهم جملة رهبان ، وتقلدوا السلاح ومن جملتهم «الراهب أنطون مشحرة» الذى نزع «الأسكيمو»والثوب الرهبانى ، وتقلد السلاح .. وحضر مع الفرنساوية لمصر» (٢) .

كان مصريا قبطيا ؛ وانظر عن فرعون ، وأسرته : الباشا المرجع السابق ص ٢١ ، ٣٢ — ٣٦ ، ٥٢ — ٥٧ ؛ وعن مشروع الامبراطورية الرومانية المقدسة انظر :

Charles-Roux : "Autour d'une Route" pp. 156-159., & Hoskins, British Routs to India", pp. 23, 26-27

(١) أنظر Corresponp. de Napelèon Ier., t.V, p, 65; Canivet. l'Imprimerie do l'Expédition d'Egypte. les journaux, les proces—Verbeaux de l'Institut, dans: Bull. de l' Inst Egyptien, 5e. serie t. III, 1909, p. 3-5 Bachatly, Un Membre Oriental, ect , etc., p. 243.

(٢) قرألى ، المرجع السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٤ ، وأنظر أيضا : ص ٧٢ وقد ذكر Jaubert فى رسالة منه إلى أخيه تاريخها : 20 Messidor AN.VI أن قسيسا مارونيا قام على ظهر بعض سفن الحملة بقراءة المنشور العربى للأسرى من المغاربة والعرب والترك ، وشرحه لهم مع بيان مهمتهم فى نشر وتوزيع المنشور عند النزول إلى البر ؛ وإنا لنرجح أن يكون هذا القسيس هو الراهب أنطون مشحرة المذكور ، أنظر : Ganivet, Op. Git. p. 9.

ولما بدأ الفرنسيون ينظمون شئون الحكم فى مصر كان من بين أعضاء الديوان الذى أنشأه نابليون اثنان من السوريين ، هما : يوسف فرحات وميخائيل كحيل [١] .

وكان من الطبيعى أن يستعين الفرنسيون بمن فى مصر من المسيحيين وخاصة السوريين لمعرفتهم باللغة العربية، وباللغتين الفرنسية والإيطالية ولاتفاق الطائفتين فى اعتناق دين واحد ، ومذهب واحد ؛ فكان « أنصارهم من نصارى البلد الأقباط ، والشوام ، والأروام [٢] » .

ولما انتهى نابليون من وضع النظام الجديد لحكم مصر فكر فى أن يتقرب إلى والى عكا أحمد باشا الجزار ، وأن يكتسب صداقته ، فأرسل إليه هدية يحملها فرنسى ، « وكان بصحبته أنفار من النصارى الشوام فى صفة تجار ، ومعهم جانب أرز ونزلوا من ثغر دمياط فى سفينة من سفائن أحمد باشا ، فلما وصلوا إلى عكا وعلم بهم أحمد باشا أمر بذلك الفرنسوى فنقلوه إلى بعض النقاير ، ولم يواجهه ، ولم يأخذ منه شيئاً ، وأمره بالرجوع من حيث أتى ، وعوق عنده نصارى الشوام الذين كانوا بصحبته [٣] » .

---

(١) أنظر الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٨ و ٧٣ ؛ ونقولا الترك ، ذكر تملك الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية ، ص ١٢٩ .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٤٢ .

(٣) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٦ ، وأنظر أيضا : قرألى ، المرجع السابق ، ج ١ ق ١ ، ص ٩٠ ؛ وقد ذكر الترك هذه القصة بشىء من التفصيل ننقله هنا بنصه رغم ما به من أخطاء المقارنة بينه وبين رواية الجبرتى ؛ قال فى ص ٥٠ — ٥٢ : إن (نابليون) استدعا بأحد الكوميسارية وأرسله إلى دمياط لكى يسير فى مركب الى عكا ... ثم توجه ذلك الكوميسارية المدعو (باظان) من مصر الى دمياط ==

وبعد تحطيم الأسطول الفرنسى فى موقعة أبي قير البحرية ، واليأس من وصول أى مدد جديد من فرنسا أنشأ « نابليون » فرقة عسكرية من مسيحي السوريين والأروام ، وقام بتنظيم هذة الفرقة وتدريبها الجنرال « كليبر[1] » .

ولما أعيد إنشاء الديوان فى عهد الجنرال « مينو » عين له مترجمان سوريان . القس رفائيل «ترجمان كبير» والياس فخر[2] «ترجمان صغير»

= ومن هناك توجه فى مركب أحمد باشا الجزار الذى كان رابطا فى الميناء وأصحب معه ترجمانا ، واثنين من التجار ، ولما وصل الى اسكلة عكا فكتب الكوميسارية (باظان) الى الجزار يعلمه عن قدومه من طرف أمير الجيوش (بونابرته) ونزل القبطان الى عكا ، وحينما دخل الجزار فسأله عن مصر وعن أحوالها ، وعن سبب خلاصه من مدينة دمياط ، فأجابه القبطان إن الفرنساوية أطلقوا سبيلى وحضر معى (كوميسارية) من طرف سر عسكرهم بكتابه ، وهو الآن معى فى المركب ، ثم أعطاه كتاب (الكوميسارية باظان) ، فلما فهم الجزار ذلك الخطاب اشتد به الغيظ والغضب ، وقال للقبطان : (وجه هذا الكافر ، ودعه يسافر وان لم يرجع فى الحال من هذه الديار أحرقته بالنار ، ثم سأله من الذى أتى معه ، فقال له القبطان ليس معه أحد سوى ترجمانه واثنين من التجار وهم نصارى من أبناء العرب ، فقال الجزار : (أخرج التجار بأرزاقهم الى البلد ، ودع الكافر حالا يسافر ، ورجع القبطان الى المركب ، وأعلم الكوميسارية بما سمع من الجزار . وفى الحال أحضر له مركبا صغيرا ورجع الى دمياط من غير تأخير ، وقبض الجزار على تلك التجار . . . الخ)

(١) انظر الترك ، المرجع السابق ، ص ١٨٠ — ١٨١ .

(٢) تولى كثيرون من أسرة فخر مناصب الترجمة والقنصلية للدول الأوروبية فى مصر فى القرن التاسع عشر . فمنهم يوسف بازيل فخر Joseph de Basile Fackr الذى كان قنصلا للروسيا فى مدينة دمياط فى عهد محمد على . أنظر خبر تعيينه والكثير من تقاريره ورسائله المكتوبة باللغة الإيطالية فى: =

ولقد لعب الأب أنطون رفائيل زاخور راهبة دوراً هاما في الترجمة الرسمية في عهد الحملة ، غير أنه لعب دوراً أهم في الترجمة العلمية في عهدى الحملة ومحمد على ، مما سنتناول الكلام عنه بالتفصيل في مواضعه .

وذكر الجبرتى مترجما سوريا آخر اسمه (نصر الله) ، قال في حوادث ذى القعدة ١٢١٥ (ابريل ١٨٠١) : « توفى محمد أغا مستحفظان مطعونا (أى بمرض الطاعون) . . . . ولم يقلدوا عوضه أحدا ، بل أذنوا لعبد العال أن يركب عوضا عنه ، وذلك بمعونة نصر الله النصرانى ترجمان قائمقام (بليار[١]) .

وممن اتصل بالفرنسيين من المترجمين السوريين أيضا عبود وميخائيل الصباغ ، وهما حفيدا إبراهيم الصباغ طبيب ظاهر العمر ، وقد ولد ميخائيل[٢] في عكا ، وتلقى العلم بها ، ثم ارتحل إلى مصر طلبا للعلم أيضا ، واتصل بالفرنسيين عند قدومهم ، وعاد معهم عند خروجهم حيث اتصل بالمستشرق الكبير (دى ساسى) "De Sacy"

= Cattaui, Règne de Mohammed Ali, etc. pp. 2-8, 213, 225,243, 479, 487, 494, 499, 510.

وقد أدركت حتى سنة ١٩٢٠ تقريبا في مدينتنا دمياط آخر أفراد هذه الأسرة وكان طبيبا مشهورا . ولا زال منزله بالمدينة يعرف حتى اليوم (بمنزل الدكتور نخلة)

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٥٩ .

(٢) أنظر شيخو ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٠ و ١٨ ؛ وسركيس ، معجم المطبوعات العربية ، ١١٩٣ — ١١٩٤ ؛ وميخائيل بريك ، تاريخ الشام ، ص ١٠٤ ؛ وقد ألف ميخائيل الصباغ كتباً كثيرة في « باريس » ترجمها « دى ساسى » ، أهمها :

١ — مسابقة البرق والغمام في سعاة الحمام نشره « دى ساسى » في ١٨٠٥ ؛ مع ترجمته إلى الفرنسية وعنوانه .

La colombe messagère, plus rapide que l'éclair, plus prompte que la nue. Texte arabe et traduc. par De Sacy. =

فى « باريس » ، وعين مصححاً للكتب العربية فى المطبعة العربية هناك ثم ناظراً المخطوطات الشرقية فى المكتبة الأهلية .

ونقولا الترك[1] المؤرخ الثانى للحملة باللغة العربية بعد الجبرتى ،

= ٢ — « المقياس فى أحوال المقياس » وهى رسالة فى تاريخ مقياس بالنيل ، طبع حجر بخط المؤلف ، « باريس » ، شهر « فلوريال » ، سنة ١٣ للمشيخة الفرنسية .

٣ — نشيد قصيدة تهانى لسعادة القيصر المعظم « نابليون » سلطان فرنسا فى مولد بسكره « نابليون الثانى » ، ومعها ترجمة فرنسية « لدى ساسى » ، « باريس » ، ١٨١١ .

٤ — نشيد تهانى لسعادة الكلى الديانة « لويس الثامن عشر » ملك « فرنسا » ومعه ترجمة فرنسية بقلم « كرانجره دا كرانج : Grangeret dela Grange » باريس ، ١٨١٤ م .

٥ — الرسالة التامة فى كلام العامة ، والمناهج فى أحوال الكلام الدارج ، ألفه سنة ١٨٢١ إجابة لدعوة صديقه اليوس بقطر ، وطبعه الدكتور « هنرى تربكى : Dr· H rdeoke. » فى « سترا سبورج » ، غوتنجن ١٨٨٦ .

(١) أنظر : سركيس ، المرجع السابق ، ٦٣٠ — ٦٣٢ Huart, Histoire de La Letterature شيخو ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٠ و ١٨ — ١٩ و ٣٥ و ٣٦ — ٤٠ و ٥٥ و ٦٠ ؛ El-Turk, Histoire de l'Expédition des Francais en Egypte. Avertissement par Desgranges; pp.VII-VII

ويبدو لى أن الترك لم يغادر مصر مع رجال الحملة كما ظن البعض ، بل بقى فى دمياط حتى سنة ١٨٠٥ ؛ فقد جاء فى : قرأ لى ، السوريون فى مصر ، ج ١ ق ١ ، ص ٨٧ ، أن القس أنطون مارون ذكر فى مذكراته الخاصة أنه كان « يرسل إلى رئيسه العام بدير اللويزه مايفيض عن نفقته من منتوجات القطر المصرى وارداته تارة بواسطة الخواجا نقولا الترك . الشاعر الكاتب الشهير (لما سافر من مصر إلى دمياط وتوجه إلى بر الشام فى آب ١٨٠٤ وكانون الأول ١٨٠٥ وطورا بواسطة يوسف عيروط فى دمياط إلخ) ؛ وقد ورد فى سجل العماد لسنة ١٨٠٥ بكنيسة دمياط الكاثوليكية اسم الطفل ميخائيل الترك فلعله ابن رزقه نقولا ؟ انظر المرجع السابق . ق ١ ، ص ١٣٣ .

كان والده من القسطنطينية ، وارتحل إلى دير القمر حيث ولد له نقولا الذى نبغ فى الأدب شعراً ونثراً ، واتصل بخدمة الأمير بشير الشهابى ، وله فيه مدائح كثيرة ، ثم سافر إلى مصر ، وقيل إن سيده أرسله إليها ليدرس عن كثب مدى ما ترمى إليه أطماع الفرنسيين ، وفى مصر اتصل بالفرنسيين وترجم لهم ، وله كتاب بالعربية عن تاريخ الحملة فى مصر والشام إسمه : « ذكر تملك الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية » . وقد قام بنشر النص العربى وترجمته الفرنسية فى « باريس » سنة ١٨٣٩ المسيو « ديغرانج : M. Desgranges. »

وكان من المترجمين السوريين للحملة أيضا القس جبرائيل الطويل(١) غادر مصر مع الحملة ؛ وبقى فى فرنسا سنوات إلى أن عين أستاذا للغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية فى « باريس » خلفا للأب رفاييل زاخور راهبة .

هؤلاء طائفة من المترجمين السوريين الذين شاركوا فى الترجمة الرسمية فى عهد الحملة الفرنسية نضيف إليهم اسما أخيرا هو يعقوب بن يوسف (عزيز) الترجمان الحلبى المارونى ؛ ذكره الأب بولس قرألى ضمن وفيات السوريين(٢) فى مصر سنة ١٨٠٣ .

ولا يمكن أن تكون هذه القائمة المختصرة ثبتا كاملا لأسماء المترجمين السوريين فقد اتصل بالفرنسيين منهم أثناء مقامهم فى مصر عدد كبير وعند جلاء الفرنسيين عن مصر خرج معهم « جماعة كثيرة من القبط

---

(١) الباشا المرجع السابق . ص ٣٩ .

(٢) السوريون فى مصر ج ١ ، ق ١ ، ص ١٢٧ . نقلا عن سجلات الآباء الفرنسيسكان للعماد والزواج والوفاة .

وتجار الافرنج والمترجمين ، وبعض مسلمين ممن تتداخل معهم ، وخاف على نفسه بالتخلف ، وكثير من نصارى الشوام والأروام . . .»[١] . ويذكر الأب قرألى أنه كان من بين هؤلاء المهاجرين « نحو خمسمائة سورى من طائفة الملكيين الكاثوليكيين ومعهم كاهنهم الخورى جبرائيل طويل ، فاستوطنوا مارسيليا[٢] .

٤ — المترجمون المصريون :

قد يلجأ الباحث المفكر بعد ذكر هذه الطوائف إلى البحث والتنقيب عله يجد من بين المصريين من قام بالترجمة للفرنسيين ، ولكنه يجد أن حالة المصريين التعليمية فى ختام القرن الثامن عشر لم تكن تؤهل واحداً منهم للقيام بهذه المهمة ، كان المصريون أغلبية من المسلمين ، وأقلية من الأقباط ، ولم تكن مدارس الطائفتين ومعاهدهما العلمية تعنى بتدريس اللغة الفرنسية ، أو أى لغة أخرى غربية ، كذلك باعد الخلاف الدينى بين المسلمين من المصريين وبين الفرنسيين ، فلم يحاول أحد من عامة مسلمى مصر وطلابهم الاتصال بالفرنسيين فى هذه المدة اليسيرة اتصال تلمذة ليتعلم عنهم اللغة الفرنسية ، كذلك لم يكن علماء المسلمين الذين اتصلوا بالفرنسيين وأعجبوا بهم فى السن التى تسمح لهم ببدء تلقى لغة جديدة .

أما العنصر الثانى من عناصر الشعب المصرى ، وهم الأقباط فقد اتصلوا بالفرنسيين اتصالا وثيقا ، وخاصة زعيمهم المعلم يعقوب الذى

---

(١) الجبرتى . ج ٣ ، ص ١٩٧ .

(٢) المرجع السابق . ج ١ ، ق ١ ص ٩٣ .

جعله الفرنسيون « سارى عسكر القبط » ، فجمع « شبان القبط وحلق لحاهم ، وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنساوية مميزين عنهم بقبع يلبسونه على رءوسهم مشابه لشكل البرنيطة ، وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم فى غاية البشاعة على ما يضاف إليها من قبح صورهم ، وسواد أجسامهم ، وزفارة أبدانهم ، وصيرهم عسكره وعزوته ، وجمعهم من أقصى الصعيد ، وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى التى هو ساكن فيها خلف الجامع الأحمر ، وبنى له قلعة وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنات عظام ، وكذلك بنى أبراجا فى ظاهر الحارة جهة بركة الازبكية ، وفى جميع السور المحيط والأبراج طيقانا للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذى رممه الفرنساوية ، ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين الوقوف ليلا ونهاراً ، وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنساوية [1] » .

وعند خروج الفرنسيين رحل معهم يعقوب وفى صحبته عدد كبير من جنود هذه الفرقة القبطية ، أما يعقوب فقد أدركته المنية وهو فى السفينة فى عرض البحر ، « أما أصحابه فقد عاد نفر منهم لوطنهم بعد قليل ، وظل منهم فى أوروبا آخرون قامت بينهم القضايا والدعاوى ، ووقع أكثرهم فى الفقر والفاقة ، فأجرت عليهم الحكومة الفرنسية معاشا مدة طويلة ، وانتهى أمرهم بالاندماج فى الفرنسيين ، ولم يكن من أثر ثابت لأحد منهم إلا لأليوس بقطر صاحب القاموس الفرنسى العربى .. » [2]

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ١٧١ .

(٢) شفيق غبريال : المرجع السابق ، ص ٣٨ — ٣٩ .

ويبدو أن الفرنسيين اصطنعوا اول مجيئهم إلى مصر طائفة من شبان الأقباط الذين تسمح لهم سنهم بتعلم اللغة الفرنسية ، ولم ينبغ من هؤلاء إلا اليوس بقطر ، فقد كانت سنه عند مجيء الفرنسيين ١٥ سنة فاتصل بهم وتتلمذ عليهم ، وتعلم اللغة الفرنسية ، واشتغل بالترجمة لرجال الحملة ، ثم ارتحل معهم ، وأقام مع الجالية المرتحلة من مصر في « مارسيليا » حتى سنة ١٨١٢ ، ودأب في تلك المدة على تعلم اللغة الفرنسية حتى أتقنها ، وفي تلك السنة استدعى إلى باريس حيث عهد إليه بترجمة بعض الوثائق العربية الخاصة بالحملة إلى اللغة الفرنسية ، وشارك العلماء الفرنسيين في تحقيق الأسماء العربية الواردة في المصورات الجغرافية التي كانت تعـد حينذاك لتنشر في كتاب « وصف مصر Description de l'Egypte. » ، وعمل في ذلك الحين على وضع قاموس فرنسي عربي ، وفي سنة ١٨٢١ — وهو في السابعة والثلاثين من عمره — عين مدرسا للغة العربية العامية بمدرسة اللغات الشرقية في «باريس» ، ولكن المنية عاجلته في تلك السنة بعد أن انتهى من وضع قاموسه ، فأشرف على طبعه في «باريس» خلفه في تدريس اللغة العربية المستشرق الكبير « كوسان دى برسيفال : .Caussin de Perceval في جزئين (١) سنة ١٨٢٩ .

(١) طبع هذا القاموس طبعة ثانية في باريس ١٨٤٨ ثم أشرف على طبعه طبعة رابعة في ١٨٦٩ — في مجلد واحد — كوسان دى برسيفال الابن . وأخيرا صححه عبيد غلاب أحد خريجي مدرسة الألسن . وأضاف إليه ملحقا في ١٠٧٤ صفحة . وأشرف على طبعه في ٣ أجزاء في مطبعة بولاق سنة ١٨٧١ . ولأليوس بقطر مؤلف آخر عنوانه : « مختصر في الصرف » وضعه لتعليم تلاميذ مدرسة =

وبعد ، فهذه هى الطوائف التى قامت بالترجمة الرسمية فى عهد الحملة ، ولم تكن إحداها على علم متين باللغة العربية ، ولهذا جاءت النصوص المترجمة ضعيفة ركيكة الأسلوب ، أقرب إلى اللغة العامية منها إلى اللغة العربية ، وإن نظرة واحـــدة إلى النصوص الفرنسية لوثائق الحملة ، ومنشوراتها الواردة فى مراسلات نابليون وكتب الحملة ، وإلى النصوص العربية لترجمة هذه الوثائق والفرمانات مما حفظه الجبرتى ونقولا الترك فى كتابيهما لتؤيد هذا الرأى ، بل لقد أبدى الجبرتى نفسه رأيه فى ضعف الترجمة فى أكثر من موضع ، فقد ذكر عند كلامه عن إنشاء الديوان فى عهد « نابليون » أن الفرنسيين وضعوا لهذا الديوان قواعد وشروطا كتبوها « بتعبيرات سخيفة يفهم منها المراد بعد التأمل الكثير لعدم معرفتهم بقوانين التراكيب العربية . . » (١) ، ولما ذكر نص محاكمة سليمان الحلبى قاتل « كليبر » قال فى مقدمتها : « وقد كنت أعرضت عن ذكرها لطولها وركاكة تركيبها ، لقصورهم فى اللغة ، ثم رأيت كثيراً من الناس تتشوق نفسه إلى الاطلاع عليها .. الخ » (٢)

= اللغات الشرقية بمحروسة باريس كرسى المملكة الفرنساوية » ، طبع حجر ، باريس ١٨٢١ ، فى ٥٨ صفحة ؛ وإجابة لدعوته ألف صديقه ميخائيل الصباغ فى سنة ١٨١٢ كتابه : « الرسالة التامة فى كلام العامة » ، « والمناهج فى أحوال الكلام الدارج » انظر مقدمة القاموس « لكوسان دى برسيفال » ؛ وشفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٣٩ ، هامش ١ ؛ وسركيس ، المعجم ، عامودا ٥٧٤ و ٥٧٥ ؛ هذا ويلحظ مما سبق ، ومما ذكر هنا أن وظيفة الأستاذية للغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية تولاها ثلاثة من المرتحلين من مصر بعد خروج الحملة : أولهم الأب أنطون روفائيل حتى ١٨١٦ ، ثم خلفه الأب جبرائيل طويل ، وهذان سوريان ثم اليوس بقطر وهو قبطى مصرى .

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٢٠ (٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٢ .

الفصل الثالث

الترجمة العلمية فى عهد الحملة

المجمع العلمى ، لجانه ، أعضاء لجنتى الترجمة والطباعة ، أغراضه ، جهوده
أهم من اشتغل بالترجمة من أعضاء المجمع : « مارسل » ، الأب روفاييل .
ترجمة حياته قبل الحملة وفى عهدها ، جهوده فى الترجمة فى عهد
« نابليون » وفى المجمع العلمى ، اختياره مترجما أول
للديوان فى عهد « مينو » ، ترجمته لرسالة طبية
عن مرض الجدرى من تأليف « ديجينيت »
الرسائل التى ترجمت فى عهد الحملة
وطبعت فى مطبعتها .

أما الترجمة العلمية فقد بدأ بها المستشرقون من علماء الحملة يساعدهم نفر من المترجمين السوريين ، وإن كانت القلاقل السياسية التى انتهت بإخراج الحملة من مصر لم تمكنهم من الاستمرار فى أداء هذا الواجب.

أسس نابليون المجمع العلمى المصرى ، أو « مدرسة العلما فى بر مصر »(1) — كما يسميه مستشرقو الحملة — ، من علماء الحملة المختصين فى دراسة نواحى العلم المختلفة — فكان بينهم المتوفرون لدراسة الرياضة والهندسة، والفلك ، والميكانيكا وطبقات الارض ، والمعادن ، والطب والجغرافيا ، والآثار ، والآداب . والفنون الخ. الخ ، ويهمنا أن نذكر أنه كان من بينهم المختصون فى :

---

(1) مجمع التحريرات . . الخ ص ٣ .

١ — الترجمة .

٢ — الطباعة العربية والفرنسية .

فكانت لجنة الترجمة تتكون من :

ڤانتور Venture ، ماجالون Magallon ، لوماكا L,homaca ،
أميدى چوبير Amede e Jaubert ، دلابورت DeLaporte ،
ريج Ralge ، براسرفيش Bracervich ، وبلتيت Belletéte[(١)] .

كما كانت لجنة الطباعة تتكون .

مارسل .Marcel (مدير المطبعة) ، بونتيس .Puntis ، جالان
.Galland ، بودوان .Bouduin ، بسون .Besson[(٢)] .

وكانت مكتبة المجمع عامرة بآلاف الكتب ، ومن بينها « كثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم . . . . . وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات ، وتصاريفها ، واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أى لغة كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت . . . [(٣)] »

وقد حددت أغراض المجمع فى الأمر الصادر بتكوينه فى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ : —

١ — تقدم العلوم والمعارف فى مصر .

٢ — دراسة المسائل والأبحاث الطبيعية والصناعية ، والتاريخية الخاصة بمصر ، ونشر هذه الأبحاث

٣ — إبداء رأيه للحكومة فى المسائل التى تستشيره فيها .

---

(١) Canivet. l'Imprèmerie de l'Expéditlon d'Egypte, etc. p. 3.

(٢) هؤلاء كانوا موظفى المطبعة عدا ١٨ عاملا من جامعى الحروف .

(٣) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٦ .

وجعل للمجمع أقسام أربعة : ١ — للرياضيات ٢ — وللطبيعيات ٣ — وللإقتصاد السياسى ٤ — وللآداب والفنون .

وقرر أن يمنح المجمع «جائزتين كل سنتين : الأولى لأهم بحث خاص بتقدم الحضارة فى مصر ، والثانية لأهم بحث خاص بتقدم الصناعة . . . وتطبع الأبحاث التى أجيزت فى مجموعة المجلس ، وكذلك الأبحاث التى لم تنل الجائزة متى رأت اللجنة أنها جديرة بالنشر . . .»(١)

وانتشر علماء الفرنسيين فى كل طرف من أطراف مصر يبحثون وينقبون ، وجمعوا بحوثا طريفة جليلة ستكون المادة التى يكتب منها فيما بعد كتاب وصف مصر "Description de l'Egypte" والكتب الكثيرة الأخرى التى ظهرت عن تاريخ الحملة من النواحى العسكرية ، والطبية والعلمية . . . إلخ

ويتضح من القائمة السابقة التى تضم أعضاء لجنتى الترجمة والطباعة أن كثيرين من هؤلاء الأعضاء قد شاركوا فى نوعى الترجمة الرسمية والعلمية ، غير أنه يبدو أن عبء الترجمة العلمية فى جملته كان يحمله ويقوم به عضوان من أعضاء المجمع ، أحدهما مستشرق فرنسى كبير هو «جان يوسف مارسل» والثانى سورى مسيحى ، هو «الأب أنطون رفاييل زاخور راهبة المخلصى» ، وهو العضو الشرقى الوحيد بمجمع نابليون .

أما «جان يوسف مارسل» (١٧٧٦ — ١٨٥٤) فكان رأس المستشرقين من رجال الحملة ، وأكثرهم نشاطا ، كان جده «جيوم مارسل» أحد قناصل فرنسا القدامى فى الشرق ، ولد فى باريس فى ٢٤

---

(١) الرافعى ، تاريخ الحركة القومية ج ١ ، ص ١١٩ — ١٢٠ .

نوفمبر سنة ١٧٧٦ ، وفقد أباه وهو صغير فكفلته أمه وأشرفت على تربيته وتعليمه فألحقته بجامعة « باريس» حيث عنى بدراسة الرياضيات والعلوم ، وفى السابعة عشرة من عمره التحق موظفاً بمعمل البارود ، ثم اشتغل فترة ما بالإشراف على طبع مجلة مدارس المعلمين ، ثم اشترك مع سوارد« Suard »ولاكرتل« lacretelle » فى تحرير "Journal des Nouvelles Publiques" ، وفى حوادث الثورة ألغيت هذه الصحيفة وفر محرروها خوفا من إلقاء القبض عليهم ، ولكن مارسل عاد من مخبئه بعد قليل وبدأ فى سنة ١٧٩٠ يتفرغ — شأنه شأن أسلافه — لدراسة اللغات الشرقية ، وقد تتلمذ فى مدرسة اللغات الشرقية على الأساتذة المستشرقين : "Langlès" و "De Sacy" و "Venture" ومن المحتمل أنه رشح ليكون عضواً من أعضاء اللجنة العلمية للحملة بناء على توصية(١) أستاذه « فانتور » .

وقد عين « مارسل » — لمعرفته باللغة العربية — مديراً لمطبعة الحملة العربية ، وذلك فى نفس الوقت الذى اختار فيه « ديزيه» و « مونج » ، وهما فى « إيطاليا» ، دون الياس فتح الله ليكون مديراً لنفس المطبعة ، فلهذا منعه نبل أخلاقه أن يجمع بين أن يكون مديراً للمطبعة وعضواً فى لجنة العلوم والآداب ، بل اكتفى بعضوية اللجنة وتنازل عن مرتب إدارة المطبعة لمعاونيه .

وقد أشرف وهو فى مصر على إخراج الصحيفتين الفرنسيتين «Le Courier d'Egypte.» و «La Decade Egyptienne.» ، ثم

---

(١) Canivet, Op. Cit. p. 6.

عين بعد عودته إلى فرنسا مديراً للمطبعة الأهليـة التى سميت بعد قليل بالمطبعة الأمبراطورية «l'imprimerie impériale» ، وله أبحاث جليلة كثيرة — وخاصة عن مقياس الروضة — نشرت فى كتاب وصف مصر [(١)] .

أما العضو الشرقى فهو الأب « أنطون رفاييل [(٢)] زاخور راهبة » كانت أسرته من طائفة الروم الكاثوليك الملكانيين ، وقد رحلت عن حلب إلى مصر فى أوائل القرن الثامن عشر ، وفى القاهرة ولد رفاييل فى ٧ مارس سنة ١٧٥٩ ، وفيها أيضا نشأ نشأة دينية فتلقى العلوم الدينية ودرس اللغة العربية على آباء طائفته ، وخاصـة على رئيس مذهبهم

---

(١) أنظر : يوسف جبرا ، تاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا ، ص ٢٧ — ٢٨ ؛ والرافعى ، المرجع السابق ج ١ ، ص ١٤٠ .

(٢) اختلف فى ذكر اسم « روفائيل » فى كتبه المخطوطة والمطبوعـة ، وفى الكتب التى كتبت عنه ، وفيما يلى بعض أسمائه : روفاييل Raphael ، والأب روفاييل Pére Raphael ، ودون روفاييـل Don Raphael ، ودوم روفاييل Dom.Raphael ، ودكتور روفاييل Dr. Raphael ومستر رفاييل Mr Raph ودون رفاييل راهبة Don Raph Monachis والقس رفاييل أنطـون زاخور الراهب .. الخ ، وذكر هو عن نفسه فى مخطوطة له يملكها صديقنا الأستاذ بشاتلى بها بعض مقالاته ومؤلفاته — أنه « القس رافائيل زخور راهب المولود بمصر القاهرة والحلبي نسبا ، وابن البيعة بالخسرو البكاثوليكى مذهبا ، ومن جماعة الخاص لبلاد سوريا من جهات فينيقيا راهبا فاسيليانيا ، وعلى طائفة الرومية بأمر صاحب الأبروشية سابقا خوريا، وأما الآن بهذا الأوان بفضـل الدايم المنان فى « باريس » معلم اللغة العربية بالمدرسة المتعلقة بالمكتبة الشهيرة السلطانية » أنظر: Bachatly, Un Manuscrit autographe de Don Raphael, etc. pp-27-35 وسركيس ، معجم المطبوعات العربية، ٨٩٥ — ٨٩٦ .

البازيلى فى القاهرة الأب «أغابيوس مطر»، وعند ما بلغ الخامسة عشرة من عمره سافر إلى إيطاليا مع أستاذه هذا ليتم علومه الدينية [١] فى روما، واستغرقت رحلته مائة يوم فوصل إلى مدينة البابوات فى أواخر يناير سنه ١٧٧٥ ، وهناك التحق بمدرسه «سانت اتاناز الاكليركيه : Séminaire de Saint-Athanase حيث بقى بها ٥ سنوات أتم فى خلالها دراساته الدينيه ، ثم مكث سنتين أخريين فى إحدى الجامعات لدراسة اللغات، وخاصة اللغة الإيطالية .

وفى سنة ١٧٨١ ، عند ما أتم رفاييل الثانية والعشرين من عمره غادر روما وعاد إلى صيدا مركز الطائفة البازيلية فالتحق بدير المخلص Couvent de Saint Sauveur ، وهناك اشتغل بترجمة بعض الكتب الدينية [٢] والوثائق المحفوظة فى مكتبة هذا الدير ، وظل يرتقى فى المناصب الدينية ، فعين شماساً فى سنة ١٧٨٢ ، ثم قسيسا فى سنة ١٧٨٥ ، ثم ارتحل بعد ذلك إلى روما فى سفارة دينية قام فى أثنائها بترجمة كثير من وثائق هذه السفارة عن العربية إلى الإيطالية وعن الإيطالية إلى العربية .

---

(١) أنظر عن حياته الدينية : قسطنطين الباشا ، ترجمة الأب روفائيل زخور المجلة البطريركية ، السنتين السابعة والثامنة (١٩٣٢) ، ص ٤٨٦ — ٤٨٨ ؛ ٥٦١ — ٥٦٤ ، ونفس الكاتب ، «وصف قنداق قداس يونانى قديم» ، المشرق ، السنة ١٩ ، ج ٣ سنة ١٩٣٣ ، ص ١٥٩ — ١٦١ ؛ Bachatly. Un Membre Oriental, p.p. 237-241

(٢) عن قائمة كتبه ومؤلفاته الدينية أنظر : شيخو ، كتاب المخطوطات العربية لكتبة النصرانية ، ص ١٠٩ — ١١٠ ؛ والباشا ، المجلة البطريركية ، السنة والصفحات المذكورة فى الهامش السابق .

وبانتهاء هذه السفارة عاد رفاييل إلى مصر واستقر بها حتى وصلت الحملة الفرنسية ، فكانت أعمالها ميدانا طيبا لإشباع طموحه وتحقيق آماله العريضة .

فى ٣ «فركتيدور» من السنة السادسة (٢٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ = ٨ ربيع الأول سنة ١٢١٣) صدرت اللائحة بتكوين المجمع المصرى ، وكانت المادة ٢٠ من هذه اللائحة تقول بأنه « سيكون هناك مترجم عربى يتقاضى مرتبا خاصا ، ومن الممكن أن يكون عضواً بالمجمع

"Ily aura un interprete arabe qui aura un traitement particulier et qui pourra être membre de l'Inst. itut.[1] "

واختير « أنطون رفاييل زاخور راهبة »[٢] ليكون هذا المترجم وعين عضواً فى لجنة الآداب والفنون الجميلة بالمجمع ، ولم تذكر المراجع الأسباب التى مهدت لرفاييل سبل الاتصال بنابليون ورجال الحملة ، واختياره دون غيره ليكون عضواً بالمجمع ، وإن كان الأستاذ بشاتلى[٣] يقدم فرضين قد يكون أحدهما أو كلاهما سببا لهذه الصلة .

(أولهما) أن نابليون كان قد أرسل إلى العالم « مونج » والجنرال

---

1) Correspondance de Napoléon Ier., t. IV, P. 385.

(٢) اسم هذا الأب رفاييل أو روفائيل واسم أبيه أنطون زخور (زخريا) الراهبة (لا الراهب) ويعلل هذا اللقب الخورى قسطنطين الباشا فى مقاله عنه بما يأتى : « بيت الراهبة أسرة قديمة مشهورة بأفراد كثيرين ذوى وجاهة وفضل نبغوا منها فى حلب وبيروت ودمشق ومصر القاهرة والأسكندرية ، ويعود نسب هذه الأسرة فيما يظهر إلى امرأة بعد أن ترملت بموت رجلها لبثت تلبس ثوب الحداد الأسود وكانت بحشمتها وحسن سلوكها كأنها راهبة ولذلك غلب على أولادها لقب « بنى الراهبة » .

3) Bachatly. Op. Cit. pp. 242-243.

« ديزيه » وهما فى إيطاليا بوصيهما بالاستيلاء على مطبعة (البروباجندا)، وأن يتفقا مع عدد من المترجمين الموجودين فى إيطاليا فكان من بين هؤلاء المترجمين سوريان من طائفة الروم الكاثوليك ، هما : دون الياس فتح الله ، ويوسف مسابكى[1] ومن المحتمل أنهما كانا على معرفة وثيقة برفاييل مذ كان يتلقى العلم فى روما . فقاما عند وصولهما إلى مصر بلفت أنظار أولى الأمر من الفرنسيين إليه .

(وثانيهما) انه كان من بين أعضاء الديوان الذى أنشأه بونابرت عضوان من السوريين هما : يوسف فرحات ، وميخائيل كحيل (٢) . ومن المرجح أيضا أنهما كانا على اتصال بالأب رفاييل الذى كان يقوم بشئون طائفتهما الدينية ، فلعلهما مهدا له السبيل للاتصال برجال الحملة الفرنسية .

ومهما كانت الأسباب فقد اختير رفاييل عضواً بالمجمع ، وبدأ به جهوده العلمية ، فقد ذكر فى صحيفة La Decade Egyptienne. أن المواطن « بونابرت » دعا المجمع لوضع تقويم للسنة الثامنة ، على أن يكون هذا التقويم ثلاثيا يشتمل على التاريخ الفرنسى والقبطى والعربى ، وكلف الأعضاء : Nouet, Monge, Bauchamps. & Raphaël. بوضع هذا التقويم ، وقامت اللجنة بمهمتها ، ووضع التقويم ، وطبع بالمطبعة العربية تحت عنوان : « تقويم الجمهورية الفرنسية حسب تبعا لتوقيت القاهرة ، والسنة الثامنة للجمهورية الفرنسية ، وذلك بالقاهرة بالمطبعة

---

1) Correspond. de Napoleon Ier. t. V, p. 65; Canivet op.; Cit pp. 3-5.

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

الأهلية ، السنة الثامنة للجمهورية « Annuaire de la Republique Farançaise, calculé pour le meridien du caire, l'an VIII de l'ère française [(١)]

ونستطيع أن نقرر دون أن نكون مخطئين أن دون رفاييل كان الواضع الوحيد أو الرئيسى للجزء الخاص بالعصرين الهجرى والقبطى [(٢)] ، ولا شك أن رفاييل قد قام بنصيب كبير من أعمال المجمع عند إعداد كثير من الأبحاث وترجمة كثير من الوثائق التى كان يجمعها علماء المجمع ليصنفوا منها كتاب وصف مصر ، وليضعوا على ضوئها النظم الجديدة السريعة لإدارة البلاد ، وحكم الشعب الجديد ، كذلك يبدو أن رجال الحكومة الفرنسية قد عهدوا إلى رفاييل بترجمة كثير من المراسيم والفرمانات والقوانين الصادرة منهم إلى الشعب المصرى ، ويقول الأستاذ بشاتلى إن كثيراً من هذه الوثائق التى تكون Fonds Marcel المحفوظة فى المجمع المصرى الجديد لا تحمل أى توقيع ، ولكن أى مقارنة بسيطة بين بعض نصوص هذه الوثائق وبين ما ورد فى مخطوطة رفاييل التى فى حوزته تدل يقينا على أن هذه الوثائق هى من وضع أو ترجمة رفاييل :

وأول هذه الوثائق الترجمة العربية لمرسوم خاص بجمرك السويس صدر فى نوفمبر سنة ١٧٩٨ (نيفوز عام Nivöse an VII. V جماد ثانى ورجب سنة ١٢١٣) وثانيهما ترجمة أمر بتأجير بعض أملاك الجمهورية

(1) Geiss, Histoire de l'Imprimerie en Egypte. Bull. Inst. d'Egypte, 1907-1908, pp, 147 149,

(٢) Bachatly. Op. Cit.. p. 244 ، وفى مقالة الأستاذ بشاتلى هذه دراسة قيمة جدا لحياة وجهود رفاييل . وعنها أخذنا معظم هذه المعلومات .

وتاريخها ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٩٨ (١٠ نيفوز عام ٧ = ٢٢ رجب سنة ١٢١٣ هـ) [1] .

وفى اليوم السابق لمسير بونابرت بحملته إلى سوريا (٥ فبراير سنة ١٧٩٩) (١٧ بلوفيوز سنة ٨ 17 Pluviose an VIII = ٣٠ شعبان ١٢١٣) عزل نابليون «جلوتييه Gloutier» عن وظائفه التى كان يتولاها من قبل اللجنة الفرنسية فى الديوان الجديد ، وعهد بهذه الوظائف إلى « فورييه Fourier » السكرتير الدائم للمجمع . وكان فورييه يعرف رفاييل زميله فى المجمع معرفة وثيقة فاستمر فى التعاون معه . ولكن لا فى الميدان العلمى ، بل فى ميدان الشئون الإدارية ؛ وفى اللحظة التى وصلت فيها القوات الفرنسية إلى العريش وصل من « برتييه » إلى « الجنرال دوجا » منشور باللغة الفرنسية موجه إلى أعضاء ديوان القاهرة ، وقد قام رفاييل بترجمة هذا المنشور إلى اللغة العربية [2] .

وبعد سفر نابليون إلى فرنسا انتقلت قيادة الحملة إلى كليبر ، وفى ٢٥ نوفمبر سنة ١٧٩٩ (٢٧ جماد ثان ١٢١٤) أصدر القائد الجديد أمراً بتكوين لجنة لجمع المعلومات عن مصر [3] « Commission des renseignements sur l'Egypte.

---

1) Bachatly, Op. Cit, p. 245; Fonds Marcel (Bibliothéque de l'Instititut d'Egypte), No. 12,14.

2) Bachatly, Op. Cit, p. 246 & Fonds Marcel, No. 23.

(٣) أنظر صورة هذا الأمر فى خطاب وجهه « كليبر » إلى رئيس هذه اللجنة فى:

Le Comte Pajal. "Kléber. Sa vie, sa correspondance, Paris. 1877. p. 392; & Rigault. Op. Cit. pp. 125-126.

وقد ذكر رفاييل فى مخطوطته التى يملكها الأستاذ بشاتلى أن هذه اللجنة كانت تتكون منه ومن سبعة أعضاء آخرين . وفى هذه المخطوطة أيضا صورة لخطاب (١) أرسله رفاييل للشيخ السادات يشكره فيه على حسن استقباله لتابعه ، ويطلب منه - كعضو فى اللجنة - أن يزوده بالمعلومات الوافية عن أسرته .

وإبان قيام رفاييل بهذا العمل قتل كليبر فى ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ (٢١ المحرم سنة ١٢١٥) فانتقلت مقاليد الأمور إلى الجنرال « مينو » وأصدر « مينو » أمره فأعيد تكوين الديوان فى صورة جديدة من من تسعة من المشايخ المسلمين ؛ يشترك معهم « فوربيه » بلقب قومسيير « كمثارى » أو « مدبر سياسة الأحكام الشرعية ، كما يسميه الجبرتى وظفر روفاييل طفرة جديدة فعين « ترجمان كبير » للديوان الجديد ، وتمكنت الصداقة فى هذا العهد بين رفاييل والقوميسيير « فوربيه » فكانا يسكنان معا فى بيت رشوان بك بعابدين حيث كانت تعقد جلسات الديوان .

وفى « ضحوة يومين فى الجمعة » (٢) أى حوالى الساعة التاسعة صباحا كان يدخل « فوربيه » إلى قاعة الاجتماع يتقدمه رفاييل « ترجمان كبير » كاتب مضبطة الجلسة أو « كاتب سلسلة التواريخ » السيد إسماعيل الخشاب حيث ينضمون إلى بقية الأعضاء ؛ وقد أعدوا فى بيت رشوان بك

---

1) Bachatly. Op. Cit. p. 247. et Un Manuscrit inédit de Don Raphael. p. 30.

(٢) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٢٥٤ ، وان كان Bachatly. Op. Cit.p.248 يذكر أن جلسات الديوان كانت تعقد كل يوم ؛ انظر أيضا الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٤٥ .

« للمترجمين والكتبة من الفرنساوية مكانا خاصا يجلسون به فى غير وقت الديوان على الدوام،لترجمة أوراق الوقائع وغيرها ، وجعلوا لها خزائن للسجلات . . . » (١) .

وقد أشار الأستاذ بشتلى فى بحثه القيم عن رفاييل إلى أنه عثر فى محفوظات المجمع المصرى الجديد على وثيقتين هامتين من ترجمة « رفاييل » أثناء قيامه بوظيفة المترجم الأول للديوان ، أولى هاتين الوثيقتين ترجمة عربية بخط « دون رفاييل » للائحة قضائية أصدرها « الجنرال مينو » لتنظيم المحاكم المصرية ، وتاريخها أول أكتوبر سنة ١٨٠٠ (— 10 Vendemiaire an Ix فندميير السنة التاسعة = ١٠ جماد أول سنة ١٢١٥) ، وفى أسفلها هذة التوقيعات (١)

مدير سياسة الأحكام الشرعية

فوربيه

كاتب سلسلة التواريخ

الشيخ إسماعيل الخشاب

ترجمان كبير الديوان

دون رفاييل

والوثيقة الثانية ترجمة أمر يومى صادر عن « الجنرال مينو » فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٠١ (٥ فركتيدور = ١٢ ربيع الثانى سنة ١٢١٦).

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٤٥ .

2) Fonds Marcel. No. 64, 90! & Bachatly. Op.Cit. p. 249.

خاص بطريقة إختيار مشايخ البلاد وحقوقهم ، وهى مكتوبة أيضاً بخط دون رفاييل [١] نفسه .

وظل رفاييل على نشاطه المعهود يقوم بترجمة الرسائل والمراسيم والفرمانات ويقرؤها بنفسه على أعضاء الديوان ؛ ففى جلسة ٢٥ شعبان سنة ١٢١٥ أرسل صارى عسكر « مينو » إلى مشايخ الديوان كتاباً وقرأه الترجمان الكبير رفاييل [٢] ، وفى هذا الكتاب وجه « مينو » الشكر للمشايخ على تهنئتهم له بالمولود الجديد الذى رزقه من زوجته المسلمة « زبيدة » .

وفى المحرم سنه ١٢١٦ (مايو — يونيو سنة ١٨٠١) — وهى السنة التى حضر فيها الانجليز والأتراك لإخراج الفرنسيين — « حضر الوكيل والترجمان وطلبهم (أى مشايخ الديوان) للحضور إلى قائمقام فلما حصلوا عنده قال لهم على لسان الترجمان ، نخبركم أن الخصم قد قرب منا ، ونرجوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنساوية » [٣] .

وفى نفس الشهر « اجتمع المشايخ والوكيل بالديوان على العادة ، وحضر «إستوف» الخازندار ، وترجم عنه رفاييل بقوله ، « إنه يثنى على كل من القاضى والشيخ إسماعيل الزرقانى باعتنائهما فيما يتعلق بأمر المواريث وبيت المال . . . . » [٤]

وفى صفر من نفس السنة — ١٢١٦ — أبرمت شروط الصلح بين الفرنسيين وأعدائهم ، فعقد الديوان وحضر المشايخ والوكيل ، فقال

(١) أنظر الهامش ٢ بالصفحة السابقة .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٤٩ .

(٣) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٨٨ .

(٤) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٩ .

الوكيل : هل بلغكم بقية الشروط ؟ ... فقالوا لا ، فأبرز ورقة من كمه بالقلم الفرنساوى فشرع يقرؤها ، والترجمان يفسرها ... »[١] .

وفى أواخر هذا الشهر — ٢٤ صفر سنة ١٢١٦ — عقدت الجلسة الأخيرة للديوان وألقيت فيها الخطب ، وكان من بينها خطبة للوكيل ألقاها بنفسه « حتى فرغ منها ، ثم قرأ ترجمتها بالعربى الترجمان رفاييل ، ومضمونها حصول الصلح وتمويهات وهلسيات ليس فى ذكرها فائدة .. »[٢]

وقد حاول رفاييل قرض الشعر إلى جانب عمله فى الترجمة الرسمية والعلمية ، فقد وصل إلى مصر فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٠ خبر موت الجنرال « ديزيه » — توفى فى ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ — وكان المعلم يعقوب قد اشترك مع « ديزيه » فى إحدى معاركه فى الصعيد ضد جماعة من المماليك ، وأبلى فى هذه المعركة بلاء حسنا مما دفع « ديزيه » إلى تقليده سيفا تقديراً لشجاعته .

تألم يعقوب لهذا الخبر ألما شديداً ، وأرسل إلى الجنرال « مينو » يعرض عليه رغبته فى دفع ثلث نفقة الأثر المزمع إقامته لتخليد ذكرى « ديزيه » ، كذلك فكر يعقوب فى إرسال تعزية شعرية للحكومة الفرنسية ، فتقدم بالرجاء إلى صديقه « رفاييل » أن ينظم له هذه القصيدة ، فنظمها من أربعين بيتا فى ثلاثة أيام ، وصورة هذه القصيدة موجودة فى مخطوطة « رفاييل » التى يملكها الأستاذ بشتلى الذى يرى أن المقارنة البسيطة بين الأصل العربى والترجمة الفرنسية للقصيدة

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٩٣ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٩٥ .

لا تدع أى شك فى أنها من نظم (١) رفاييل، وإن كانت الترجمة الفرنسية تحمل اسم يعقوب .

كذلك لم تشغل الترجمة الرسمية فى العهد الأخير رفاييل تماما عن الترجمة العلمية ، فقد قام فى شعبان سنه ١٢١٤ (يناير سنه ١٨٠٠). بترجمة رسالة طبية صغيرة ألفها « ديجينيت » كبير أطباء الحملة عن مرض الجدرى وطرق علاجه ، وقد طبعت هذه الرسالة مرتين فى مطبعة الحملة ، وكان عنوان الطبعه الأولى :

« هذا تنبيه فيما يخص داء الجدرى المتسلط الآن ، وذلك بشرح موجه إلى أرباب الديوان بمصر القاهرة من قبل البلدى دجنخط رئيس الأطبا فى الجيش الفرنساوى بجهة الشرق — بمصر القاهرة بدار المطبعة الجمهـــور الفرنساوية (كذا) ، فى يوم ٢٠ من شهر شعبان سنة ١٢١٤ هجرية »(٢) .

---

1) Bachatly. Un Manuscrit, et . p.31; Un Membre Oriental, etc. p. 251; Homsy, Le Genéral Jacob et L'xpedition de Bonaparte en Egypte. p. 115,

والأستاذ شفيق غربال بك ، الجنرال يعقوب .... الخ ص ٢٦ .

(٢) كان عنوان الرسالة بالفرنسية كما يلى :

"Avis sur la petite vérole regnante, adrassé au Divan du Kaire, par le Cen. Desgenettes, Premier médecin de l'Armée d'Orient. Au Kaire, de l'imprimerie Nationale, le 27 nivôse an VIII."

وقد طبعت الرسالة طبعة ثانية فى ٩ شعبان سنة ١٢١٥ (٢٦ ديسمبر سنة ١٨٠٠) تحت عنوان : « هذا تنبيه فيما يخص داء الجدرى المتسلط الآن ، وذلك بشرح موجه إلى أرباب الديوان بمصر القاهرة من قبل « السيتوين دجنط » رئيس الأطباء فى الجيش الفرنساوى بجهة الشرق ، فى ٢٠ من شهر شعبان سنة ١٢١٤ هجرية بمصر القاهرة — طبع ثانيا بدار مطبعة الجمهور الفرنساوى فى ٩ =

وقد ذكر « ديجينيت » أنه أهدى ٢٥٠ نسخة من رسالته إلى الديوان ، و ٥٠ نسخة أخرى للست نفيسة المرادية ، وأيد هذه الرواية الجبرتى . فقال فى حوادث شعبان سنة ١٢١٥ : « وفيه أرسل رئيس الأطباء الفرنساوى نسخا من رسالة ألفها فى علاج الجدرى لأرباب الديوان ، لكل واحد منهم نسخة على سبيل المحبة والهدية ليتناقلها الناس ، ويستعملوا ما أشار إليه فيها من العلاجات لهذا الداء العضال ، فقبلوا ذلك منه ، وأرسلوا له جوابا شكرا له على ذلك ... » ولا شك أن الجبرتى نال نسخة منها — فقد كان عضواً فى الديوان — وأنه قرأها . فقد قال معقبا على هذا الحادث : « وهى رسالة لا بأس بها فى بابها »[1] .

هذه هى الطوائف التى شاركت فى الترجمة الرسمية والعلمية فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١) ، وإنا لنرجح أنه إذا كان قد قدر للحملة أن يطول عمرها فى مصر لنشطت هذه الحركة وأثمرت وآتت أكلها ، غير أنها انقطعت بعد خروج الحملة فترة ما ، على أن تبدأ حياة جديدة أكثر نشاطا وأوفر إنتاجا فى عهد العاهل العظيم محمد على ، وسنرى أن الفرنسيين — ومنهم بقية من علماء الحملة —

= من شهر شعبان سنة ١٢١٥ هجرية — قد نقلها وترجمها باللغة العربية القس رافائل راهب بمصر . أنظر الرسالة نفسها ،

Bachatly. Op. Cit. pp. 250-1; Dunne, Printing and Translations.. tec. p. 327.; Geiss. Op. Cit. p. 150.

(١) الجبرتى ج ٣ ، ص ١٤٩ .

هم الذين سيوجهون الحياة العلمية كلها — لا حركة الترجمة فقط — فى ذلك العهد .

ونرى أخيراً أن خير ما يتوج به الكلام عن الترجمة العلمية فى عهد الحملة أن نرصد فيما يلى ثبتا بالكتب — بل الكتيبات — القليلة التى ترجمت[1] وطبعت فى مطبعة الحملة :

١ — وصايا لقمان الحكيم Fable de Loqman, surnommé le Sage. طبعت باللغة العربية ومعها ترجمتها الفرنسية فى مطبعة الحملة فى كتاب صغير من ١٢٠ صفحة ، كان ثمنه تسعون نصف فضة .

٢ — نشرة بمحاضر محاكمة سليمان الحلبى باللغات الفرنسية والعربية والتركية ، وكان عنوانها باللغة العربية : « مجمع التحريرات المتعلقة إلى ماجرى باعلام ومحاكمة سليمان الحلبى قاتل صارى عسكر العام كليبر — بمصر القاهرة — بمطبعة الجمهور الفرنساوى — فى سنة ٨ من إقامة الجمهور » وعنوانها بالفرنسية "Recueil des piéces relatives à la procédure et au jugement de Soleyman al-Haleby, assassin du general en chef Kléber." وتقع هذه الكراسة فى ١٥٠ صفحة .

٣ — أجرومية للغة العامية Grammaire arabe Vulgaire à l'usage des Francais et des Arabes. (Incomplet.) ، وهى من وضع « مارسل » ، وقد بدأ فى تصنيفها فى قلعة القاهرة ، ثم أضاف

---

(١) ذكرت هذه الكتب فى :
Giëss. Hist. de l'imprimerie en Egypte, (Bul. de l'inst. d'Egypte, 1907, pp. 148-150.

إليها زيادات فى الاسكندرية . غير أنها ظلت غير كاملة ، وطبعت فى سنة ١٨٠١ باللغتين الفرنسية والعربية فى ١٦٨ صفحة .

٤ — « رسالة فى مرض الجدرى » ، تأليف «ديجينيت» كبير أطباء الحملة ، وترجمة الأب رفائيل زاخور ، وقد ذكرنا فيما سبق عنوانها العربى والفرنسى الكامل ، طبعت باللغتين الفرنسية والعربية فى ٤٣ صفحة طبعتين : الأولى فى شعبان سنة ١٢١٤ (يناير سنة ١٨٠٠) ، والثانية فى شعبان ١٢١٥ (ديسمبر سنة ١٨٠٠) .

الفهرس التفصيلي

الصفحات

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد ــ الظاهر
ت ٥٩٢٢٦٢٠ ــ فاكس ٥٩٣٦٢٧٧

تاريخ
الترجمة فى مصر
فى عهد الحملة الفرنسية

الدكتور
جمال الدين الشيال
أستاذ التاريخ الإسلامى

مكتبة الثقافة الدينية

تاريخ
الترجمة فى مصر
فى عهد الحملة الفرنسية

الدكتور
جمال الدين الشيال
أستاذ التاريخ الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر
مكتبة الثقافة الدينية